

رواية

الزمرة

للأسير القسامي/ عمار الزبن

رواية الزمرة

عمار الزبن

-سجن رامون الصهيوني-

صحراء النقب- فلسطين المحتلة

«هذه الرواية بأسمائها وزمانها وأمكنتها
حقيقية من الألف إلى الياء»

إهداء

«إلى رجال نخبة القسام في غزة،
تحت الأرض وفوقها،
وفي لجج بحرها»

ليس بعد!!

كانت كلماته القليلة، الصامتة، الواعدة، المتحفزة، الوثابة التي لم ينطق بها لسانه وأطلقتها إيماءة رأسه وعينيه، كافيةً لأن تسكت غضبَ ثلاثتهم، وقد توزعوا بين المصلين في المسجد، ينتظرون ساعة الصفر، فقد مضى يومان على المعركة ولم تأتِ الإشارة بعد، ولا يزال محمد الصغير ذو الأعوام الخمسة يتفقد بندقية والده التي لم تتحرك من مخدعها كالعادة، تحاوره براءتُه: هل اشترى بابا بندقية جديدة وترك لي هذهِ؟!.

ثم يجلس متربعاً أمام خزانة الحائط التي تحتضن مُا يشغل باله: «سأطخ» بها على الطيارة اليهودية وعندما تسقط سأركض بسرعة.

يدخل والده الغرفة يحمل في عينيه وجع «ليس بعد» أسكتت حماسه وحماس أخويه، أشار القائد علاء، ليعود إلى المنزل والقطاع بأسره يُزرَعُ بدمار الصواريخ وحممها القادمة من كل مكان، فلا بأس أن تعجب زوجته رغم سعادتها ببقائه إلى جانبها على غير

عـادة المقاتلـين، فلـم تعهده متخلفًا عـن واجبه الـذي أداه منذ اللحظة الأولى في الحربـين الأخيرتـين عـلى غزة، لكنها رغم ذلك سـعيدة، سـعادة موهومـة ولحظيـة تـدرك في قـرارة نفسـها أنهـا لـن تـدوم وسرعـان مـا سـيتضح السـبب الحقيقـي لتأخـر زوجهـا إبراهيـم عـن واجبـه، ففـي غـزة لا وجـود للأسـئلة المبهمة:السـلام عليكم أيهـا البطل، لمـاذا تجلس أمـام الخزانة؟!.

_ بابا، بابا، لماذا لم تأخذ الرشاش وتطلق النار على الطيارة؟!.

_ لأن الرشـاش هـذا لا ينفـع مـع الطيـارة، الطيـارة بحاجـة إلى صـاروخ كبير .

_ طيب لماذا لا يوجد عندنا صواريخ؟!

_ أنا ليس عندي صواريخ لكن الآخرين عندهم.

_ طيب ليش يا بابا انت مش مع المجاهدين؟

_ ابتسـم إبراهيـم وهـو يرفـع محمـد إلى أعـلى ليقبلـه وهـو يقـول له: لأنـه «ليـس بعد».

_ كانـت أم محمـد تصغي جيـداً لكلمات زوجها وقد أقسـمت في قرارة نفسـها أن أسُرتهـا الصغـيرة مقدمـة على أمرٍ سَـألتِ اللـه أن يُخفف من عواقبـه، فهـي الأدرى بمقدمـات الأمـور العظيمة وقد خـبرت بذلك منذ زمن بعيد!!

_ ولعل إبراهيم الذي أسكنها عينيه وقلبه لم يشأ طيلة السنوات الست الماضية من عمر زواجهما أن يفجعها بنفسه رغم علمها بطبيعة عمله واتفاقهما على ذلك، ولا يزال يهيئها في كل فرصة للحظة التي سيخرج فيها دون عودة، ولا تزال بدورها تُقنع نفسها: بأن الله عز وجل سيُبقي لها الرجل الطيب والحبيب الرائع، فليس عدلاً أن تموت كل القصص الجميلة في غزة، وليس قدراً أن ينتصر الغزاة علينا، فعلى أعتاب شاطئنا أذللنا الإسكندر المقدوني ستين يوماً وأدميناه في كتفه قبل أن يقتحم المدينة، ولابد من أن يقاوم إيماننا باطلَهم حتى تنتصر الحياةُ ويبقى الحب.

أنا لست أنانية، ولا أدفع زوجي كي يكون جباناً ولا متخلفاً عن واجبه، لكن إنسانيتي تدفعني إلى الخوف عليه، بل إلى الموت خوفاً عليه، ألم يقل مولانا عز وجل: (كُتبَ عليكم القتالُ وهو كُرهٌ لكم)، أنا أكره أن يفارقني زوجي رغم أنني على علم بأن الخير في صد المحتلين عنا وعن أرضنا.

- وقطع حوارها الداخلي وهي تنظر إلى زوجها إبراهيم يلاعب محمد، اهتزاز المنزل تحت تأثير صاروخ أحدث دوياً ضخماً في مدينة خانيونس التي يقطنون بها وتحديداً حيّ الأمل الذي تساقط كثير من زجاج منازله، فالحديث لا يدور مثلاً عن حيّ في لوس أنجلوس أو حتى في بغداد، إنه حيّ الأمل، تلطيف ماكر لحياة اللاجئِ الفلسطيني الذي حشروه في زوايا غرف صغيرة، وحاولوا إقناع رأسه الصلب: أنك ارتقيت عشر درجات مرة واحدة بعد أن كنت أسفل

السلم في المخيم فإذا أحسنت التنازل عن بعض أبجديات بقائك، ربما تحظى بالمزيد.

- لكن حيّ الأمل لم يدخل حَظيرة مكرهم وها هو ينضم إلى أصله تحت ألواح الزينكو والإسبست في المخيم، فتصعقه الصواريخ من كل جانب، تهشم الذكريات التي تسكن جدرانه، تحرق خارطة الوطن السليب المعلقة على جدران بيت أم خالد التي طردت من بئر السبع زمن النكبة وما تزال ترقب عودتها من جديد وبيدها مفتاح الدار، لكنها وإن لم تنل الصواريخ من كبريائها وطرف ثوبها الفلاحي المزركش الجميل الذي كان أبو خالد يهتم بها عندما ترتديه زمن الصبا هناك في الوطن الأصيل، إلا أن خوفها من بقية عمر قد لا يطول فلا يمنحها نسمة هواء عليلٍ في صباحات الندى في حاكورة الدار العتيقة هناك.

أن تكون غزيّاً!!

- كان (ياسر الحاج) يتلقط الأخبار من بيت صديقه، يحرك مفتاح المذياع إلى حيث الإذاعات الأكثر سرعة في نقل الخبَر الأقوى في رفع المعنويات، فأهل غزة لا يزالون يحتفلون بهذا الاختراع الفذ الجميل رغم أنهم يعيشون في القرن الواحد والعشرين يحفظون (لماركوني) مكانة في قلوبهم، فلا وزن للتكنولوجيا الحديثة والفضائيات وكل العوالم التي تتحرك بالاختراع السيئ، المقيت، المتخلف، غير الأخلاقي، الحصري على غير أهل غزة، الذي يطلقون عليه الكهرباء!!

فالكهرباء هنا ترف لا يليق باللاجئين والكادحين، والحالمين، وعليك إن كنت غزياً أن تكره الكهرباء حتى لا تتعود على بضع ساعاتها القليلة، فكل عامين يا حفظك الله، هناك حرب على الأبواب، أول ضحاياها محطة الكهرباء العجوز.

- غادر ياسر منزل صديقه وقد تجاوزت الساعة الواحدة والنصف ليلاً متجهاً إلى منزله في المخيم، يحمل في وجهه ابتسامة عريضة

التقطها من وجه المذيع الذي يبثها عبر صوته وهو يشرح تفاصيل الإنزال البحري في زيكيم!!

- كلمات كبيرة لم تعهدها موسيقى المقاومة داخل الأرض المحتلة: أعلن العدو الصهيوني أن مجموعة كوماندوز من الضفادع البشرية، استطاعت الوصول إلى شاطئ (زيكيم) قرب عسقلان قادمة من قطاع غزة حيث تم تصفية المجموعة، بينما نشر أحد مواقع العدو شريطاً مصوراً سربه أحد الجنود يُظهر فيه الجنود مذعورين والقذائف تنهمر عليهم في قاعدة زيكيم التي هاجمتها الضفادع البشرية من أبناء اللاجئين.

وبينما كان ياسر يقترب من البيت متسللاً بين أزقة المخيم التي بدت على وقع الحرب،خاوية على عروشها، فإذا بلهيبٍ هائل يرفعه إلى أعلى ويقذفه أمتاراً عديدة إلى الوراء، أفقدته الوعي ولم يصحُ إلا في مستشفى ناصر،

ينظر حوله وأمامه وكأنه عاد من الخيال فلا يجد غير صديقه إبراهيم الذي وصل لتوه لزيارته: إبراهيم! هل أصاب أهلي مكروه؟!

- صدم السؤالُ إبراهيمَ الذي لم يتحدث مع أحدٍ لحظة وصوله المستشفى، لكن سرعان ما تدارك الأمر:

- على رسلك يارجل، أولاً حمداً لله على سلامتك، ثم أهلك بخير والحمد لله.

- لكـن الضربـة كانـت بجانـب البيـت، بـل أظنهـا في البيـت، اصدقنـي القـول يـا إبراهيم.

- كانـت العـبرات تترقـرق في عينـي إبراهيـم العسـليتين، تعتصـم في مقلتيـه، تسـتحلفه، ترجـوه أن يعتقهـا لإنسـانيتها حتـى تبـوح بـسر ما رأت قبـل لحظـات، فـما عـادت تطيـق جَلَـدَ صاحبهـا الـذي جـاء لتـوه مـن هنـاك في المخيـم، والصـاروخ الـذي مـزّق النائمـين في ذاك البيـت الصغـير المغـروس في أزقتـه الضيقـة المسـتحيلة، وقد عَرج ذبحاً وسـحقاً وحرقـاً عـلى والـديّ يـاسر اللذيـن لتوهـما خلـدا للنـوم بعد قيـام الليل فلم يسـتيقظا.

وأخـذ حرائـر الكـون، أخواتـه الأربـع وإخوتـه وحتـى أنفـاس الجـيران، فتدمـرت البيـوت المحيطـة، أكلتهـا نـيران طـنٍ مـن المتفجـرات التـي جـاءت مـن كبد السـماء، وجبان يسـتقوي على بيوت المخيـم من قمرة طائرتـه الأمريكيـة، فيصطـاد الأبريـاء نيامـاً، فقاعـدة الجبنـاء ألا ينظروا في عيـون ضحاياهـم، ثـم يبلغ مقر قيادتـه: «أصبت الهـدف بدقة دون المسـاس بالمدنيـين فنحـن الجيـش الأكـثر أخلاقـاً في العالم»!!

- في تلـك اللحظـات والإربـاك البـادي عـلى إبراهيم الذي يحـاول ضبط نفسـه، دخـل خـال يـاسر الـذي كان يتحـين الفرصـة لإخبـار ابـن أختـه بالفاجعـة: اسـمع يـا ولـدي، أنـت رجل مؤمـن و....!

- يا خال، هل استشهدت أمي؟!

- دمعت عينا الأخ المفجوع بشقيقته: نعم يا ولدي فاحتسب عند الله.

- إنا لله وإنا إليه راجعون ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، كان يرددها باكياً تخرج من فؤاده ألماً وشوقاً، ثم يستدرك بسرعة: أبي وإخوتي السبعة؟!

- يخفق قلب الخال كقلوب أهل غزة التي تحترق منذ أيام على فراق أحبتها، وقد اتفقت مع الشباب أن يخبره بالتدريج، لحظتها لم يستطع إبراهيم تحمل المشهد، فغادر الغرفة فورًا «متجهًا» إلى ثلاجة الشهداء، ففي غزة لا يموت الناس طبيعياً ولا يعرفون شيئاً يسمى ثلاجة الموتى، فأن تكون غزياً إذاً أنت شهيدٌ مع وقف التنفيذ حتى يجيء دورك في أحد الحروب المتلاحقة، أو سنوات الحصار الممتدة، أو صاروخ ذكي بدعوى أنك قنبلة موقوتة، لذلك لا تصف الغزي عندما يغادر الحياة بالميت، فمكتوب على جبينه عندما يولد: «أنا من غزة إذاً أنا شهيد».

- تنقلت عينا إبراهيم بين عائلة الشهداء، طفل مع والده وامرأة تحتضن أطفالها ولائحة الاتهام قبل تنفيذ حكم الإعدام بطائرة الـ F16: الجلوس في إحدى استراحات البحر وقت المعركة الجوية، ظناً بأنها الأكثر أماناً في غزة لبعدها عن مواقع المقاومة.

«رائحة الحرب»

- الصيف شهية الطائرات الشرهة وأحلام المعاتيه في تل أبيب!!

لذا فحواري غزة وفتيتها وحتى أسماك البحر الشحيحة التي تقدمت طواعية إلى شباك الصيادين رغماً عن أنف الحصار، تدرك أن موعد الجولةِ قد حان، وأن رائحة الحرب تتجول في كل مكان، صحيح أن جيش المحتل ليس بحاجة إلى سبب حتى يقتل أمنَ الفلسطينيين وإلا كان لزاماً علينا إعادة تعريفه، لكن شوكة المقاومة لم تعد تتلقى الصفع على خدها الأيمن حتى يسهل الوصول إلى الأيسر!.

فأيضاً صيفهُا كان رياضياً بامتياز على رفع كأس العالم في الثاني عشر من حزيران، والبرازيل واستراليا تفتتحان المعركة الكروية، عندما أسرت جنديًا واثنين من المستوطنين قرب الخليل دفعة واحدة، لتبدأ الحرب في الضفة الغربية والعين العوراء، اللئيمة، الغادرة، تتلصص عياناً على غزة، فيقول ناطق المحتل: «القلب باقٍ في الضفة والعينان تتجهان إلى غزة».

- ويبـدأ العـد التنـازلي للمعركـة، تتفنـن قـوات نخبتهـم في ملاحقـة اللافتـات والرايـات والأعـلام في جامعـة بيرزيـت، تعتقـل كل شيء في الضفـة، يغيظهـا الأطفال في الشـوارع وهم يرفعون شـارة النصر الثلاثية وحواجبهـم تعلـو وترقـص للجنود: لقـد أدخلنا في مرمـى عجزكم ثلاثة، حتـى ميـسّي لا يسـتطيع فعـل ذلـك، ثـم يُخرجـون ألسـنتهم للجنود.

- وبعـد أقـل مـن ثلاثين يومـاً تـم التنكيل بأهـل الضفة الذيـن انتصروا لرجالهـم المضربـين عـن الطعـام داخـل الأسر، منـذ سـتين يومـاً ويزيـد، فـأُسروا حتـى يفكـوا أسر محبيهـم، كانـت ليلـة السـابع مـن تمـوز: تباغتونـا في الضفـة!! سـنريكم الآن بعضـاً مـما كان عـلى الـدوام حتـى يُنشّـط قبوركـم ودموعكـم.

- فيستشـهد ثمانيـة مقاتلـين في رفـح وهـم يرابطـون تحـت الأرض في نفـق، وقـد أصابهـم صـاروخ الزبانيـة.

ومـا يـكاد صـوت الغازيـات ينجـلي من السـماء، حتـى انشـقت الرمال الملتهبـة وقذفـت مـن بطنهـا الأسرار المخبـأة لهـذا اليـوم، مائـة صاروخ صالـت وجالـت في طـول فلسـطين وعرضهـا تعانـقُ حيفـا شـمالاً وتدك ديمونـا جنوبـاً، فيـضرب غبيهُـم الأكـبر– نتنياهـو - بيـده عـلى الطاولـة في مقـر قيـادة جيشـه: أيهـا الحمقـى أنقـذوا مـاء وجهي، أسـكتوا هذه الصواريـخ اللعينـة، خمسـة ملايـين مـن أهلكـم نزلـوا إلى الملاجـئ، أين قبتكـم الحديديـة لمـاذا لم تحفـظ كرامتنا؟!

حجرُها الآمن!!

_ يتـبرم أحمـد في الجلسـة، تتكلـم فيـه الأشـياء جميعهـا، يـود الانفجار مـن غيـظ «ليـس بعـد» ولا يجد غـير الإلحاح: يـا أخي، مـرت ثلاثة أيام عـلى الحـرب، ونحـن لم نـبرح مكاننـا، ألم يحن الوقـت بعد؟!

_ كان أحمـد الضخـم ذو الصـوت الخشـن، يخاطـب القائـد عـلاء بحرقة:لمـاذا يسـبقنا اِخواننـا ونحـن عـلى أتـم الجهوزيـة والاسـتعداد؟!

_ الصـبر يـا أخـي، كل شيء مـدروس، وكأنـك لسـت عسـكرياً ولا تـدرك معنـى أن تُـدار الحـرب بخطـة وتكتيـك وحسـابات دقيقة؟!

_ يتدخـل محمـد أصغـر المجموعـة ابـن الواحـد والعشريـن عامـاً: مـا أسـلفته صحيـح لكنـه الشـوق للجهـاد والنيـل مـن الجبَنـاء، فـما عـاد القلـب يصـبر على مشـاهد القتل والدمـار الذي تحدثه طائـرات العدو.

_ عـلاء متحدثـاً بـشيء مـن الحـزم بـدا واضحـاً عـلى وجهـه المسـتدير وبشرتـه البيضـاء، فقلـما يـراه النـاس الذيـن تعـودوا عـلى ابتسـامته

الحاضرة، بهذا الشكل: يا شباب، ما كان لنا جميعاً، أن نصل إلى ما نحن فيه لولا ثقة إخواننا فينا، وكلكم تدرّب على الجندية، أليس كذلك يا أبا محمد؟!

_كان إبراهيم _ أبو محمد _ أكبرهم سنًا في الثامنة والعشرين من العمر ومن أقدمهم في مجموعات المقاومة: ما يقوله علاء في مكانه، يجب أن نضبط عواطفنا ونلتزم بتوجيهات غرفة العمليات التي تدير المعركة بحكمة، وحتماً سيرزقنا الله _عز وجل_ ما نبغي إن أخلصنا النية وتوجهنا إليه بالدعاء، وخاصة لإخواننا الذين يبلون بلاءً حسناً في سلاح المدفعية.

_توقف الحديث لدى طرق الباب من جانب والدة علاء التي أحضرت الشاي إلى غرفة الضيوف المنعزلة نسبياً عن بقية الشقة وغادرت بعد أن ألقت السلام على ضيوف ولدها من أبناء الحيّ، ولم تكن بالبعيدة عن عالم ولدها المجاهد وإن لم تحط علماً بتفاصيله، غير أنها تدرك أن اجتماعاته المكثفة خلال الأسبوعين الأخيرين وتحركاته المفاجئة، تفصح عن شيء سيحدث،

سألت الله أن يقي ولدها وصحبه السيئات، فالأهل في غزة لم يعودوا منذ عدة سنوات بعد طرد الاحتلال من القطاع بفعل المقاومة، بعيدين عما يفعل أبناؤهم، فالقطاع أصبح محرماً على العدو ولم يعد خافياً حتى عن الاحتلال أن جيشاً من المقاومين قد ولد في القطاع، ولم يعد سراً أن كل بيت أصبح مقاومة وبالتالي التحرر

النسـبي مـن القواعـد الأمنيـة التي مـا تزال معمـولاً بهـا في بقية الأرض المحتلـة وتقـضي بعـدم معرفـة الأهـل حتـى عـن أبسـط الأمـور.

_كانـت أم عـلاء تـرى فيـه كل شيء، وتخـاف عليـه مـن كل شيء، ترقيه كالطفـل حتـى يعـود مـن عملـه في غـزة، وقـد رجتـه أن ينقـل عملـه إلى خـان يونـس، حيـث كان يعمـل ضابطًـا في المباحـث الجنائيـة بَعـد تخرجـه مـن كليـة الشُرطـة التـي درس فيهـا سـنتين تضـاف إلى شـهادة البكالوريـوس في اللغـة العربيـة، لكنـه كان دائـم الابتسـام في وجهها: يا والـدتي الحبيبـة! خدمـة النـاس في غـزة قـد تكـون أوجـب مـن خدمـة النـاس هنا.

_لكن يا ولدي، أريد أن أراك دائماً ولا تغب عن ناظري.

_يـا حاجـة، _اللـه يـرضي عنـك_، مـاذا سـتفعلين عندمـا ألقـى اللـه شـهيداً؟!

_ قرصتـه مـن كتفـه وهـي تـصرخُ: اخـرس أيهـا المجنـون، يبـدو أنـك لسـت قلقـاً عـلي وعـلى والـدك، ألا تعرف ماذا سـيحدث لنـا إن أصابك مكـروهٌ لا سـمح اللـه؟!

_ اقـترب إليهـا وهـو يضحك واضعًا رأسـه في حجرها وقـد كانت تجلس متربعـة على الأرض حتى تمسح بيدها على رأسـه وهـي العادة الجميلة التـي لم يتخل عنهـا حتى اللحظة.

«أنتما في عيني يا أمي، لكنك تعلمين أني اخترت طريقاً نهايته أحد أمرين الأول والأقرب أن أنال الشهادة في ساحة المعركة، والثاني أنِ أمسك بيدك الجميلة هذه «قبلها أثناء حديثه» وأطير بك إلى قريتنا الرائعة «بشيت» في اللد بعد تحريرها من الصهاينة، وما ذلك على الله ببعيد».

_ اغرورقت عيناها بالدموع حتى سقطت دمعة على وجه علاء وهي تردد: إن شاء الله الثانية يا ولدي، ربنا يحفظك ويحفظ جميع الشباب، حتى نفرح فيكم وفي أولادكم.

_ في تلك اللحظة دخلت زوجة شقيقه الأكبر «علي» الذي تزوج منذ شهرين، ويحظى علاء بمكانة خاصة لديها، فكلما دخلت المسكينةُ إلى مكان يتواجد فيه علاء ووالدته، بادرت أم علاء بالقول وهي تبتسم: بدون هذا العلاء الكريم، لم نكن لنراك هنا أيتها الجميلة، وما كان زوجك المحترم سيحظى بوجهك الوضاء مثل البدر.

_ ولطالما استحلفها علاء ألا تذكر ذلك حتى لا يُحرج شقيقه وزوجته، لكن دون جدوى، فالأم المربية تصرّ دائماً على تكرار درس البذل الذي ضربه علاء عندما قدّم لشقيقه مبلغ الجمعية التي كان يشترك فيها مع أصدقائه، وجاء دوره ليقبض ألفي دينار أردني، فاجتمع الحبيبان تحت سقف واحد، غرفة وتوابعها، اقتطعها الأهل لعلي، فتلك حياة اللاجئ الذي كان بالأمس سيداً في قريته ومدينته وأصبح اليوم محشوراً في بضعة أمتارٍ مستحيلة.

في غزة يُولَدُ الحُب

تكررت اللقاءات المقتضبة السريعة بين أربعتهم خلال الأسبوعين الفائتين، اللذين يسبقان المعركة، بعد أن كلفوا سراً بالاستعداد لتنفيذ مهمة خاصة في صميم عملهم في وحدة النخبة دون توضيح الزمان والمكان، حيث أخفي الأمر حتى عن إخوانهم المقاتلين في الوحدة وذلك من شروط عمل النخبة التي شكلت بعد حرب حجارة السجيل عام ألفين واثني عشر، حتى تحاكي أرفع الوحدات المختارة في الجيوش وحركات المقاومة، وخاصة أن العدو يتباهى بعدة وحدات من هذا النوع أبرزها «شينت 13» وهي الوحدة المختارة لبحرية العدو الصهيوني الملقى على عاتقها تنفيذ أخطر المهام خلف خطوط العدو، ولتكون نخبة القسام هذه تحدياً لكل الصعاب، وقد كان أول ظهور فعلي لها في إنزال زيكيم ثاني أيام الحرب، حيث كشفت تسريبات جيش العدو التي وصلت إلى يد المقاومة وتم نشرها على الملأ، كيف يتقدم عضو النخبة من الضفادع البشرية إلى دبابة المركافاة الأسطورية لدى العدو ويلصق بها عبوة ناسفة ثم ينسحب خلف التلة لتنفجر العبوة بالدبابة المأهولة التي كانت

تتحرك بجنون وسط صراخ الجندي الذي يقف خلف كاميرا المراقبة ويوجه طاقمها، وهذا ما دفع رئيس أركان جيش العدو «بيني غينيس» إلى القول: نحن نواجه رجالاً شجعان، يتقدم أحدهم نحو الدبابة دون خوف.

وعندما احتجت عليه صحافة العدو: كيف تشيد بالمخربين الذين يشنون حرباً علينا؟!

قال ووجهه يقطر دماً من وجع المقاومة: من الشجاعة أن نعترف بحقيقة عدونا حتى نستطيع محاربته، وأنا لا أتراجع عن حديثي، فعدونا شجاع.

_ يعيش المقاتلون الأربعة _علاء _ إبراهيم _ أحمد ومحمد _ حياتهم الطبيعية وفق معايير ومقاومة غزة، فأن تكون عضواً في النخبة ليس معناه التحرر من الواجبات الدورية وأهمها الرباط على الثغور مرة أو مرتين في الأسبوع ليلاً، لمنع تسلل العدو، وأيضاً، كونك من هذه الفئة المنتقاة بعناية والمستنفرة دائماً لا ينفي عنك صفة العشق.

وإن تسببت طبيعة شخصيتك وواجباتها السرية المفاجئة ببعض الإحراجات الأشد غرابة، وهذا ما أوقع العاشق أحمد أو ما اشتهر الناسُ بمناداته «سمارة» منذ أن كان طفلاً في حيّ الأمل لبشرته الحنطية السمراء، بأتعس اللحظات في حياته، كان ذلك فترة الاستنفار

ما قبل الحرب، عندما تكللت أشعارُ حُبه وغزله ورجائه بالنجاح لإقناع فاتنته لتزور بيته ولو لبضع ساعات: صحيح أنكَ متحدثٌ ماهر وتعجبني عندما تنظم الكلام على هذا النحو الجميل، لكن طلبك مرفوض.

_ لقد تعبت وأنا أغرف لك من بحر قلبي الكلمات، فلماذا تبخلين علينا بالإطلالة؟!

_تضحك بهدوئها الساحر ثم تستمر في استفزاز الحبيب، فأيضاً في غزة للعشق مذاقٌ خاص وجميل: يا أحمد، أو يا سمارة، أتحب أن أناديك سمارة؟!

_ ناديني بما شئت فكل ما تنطقين به جميل، المهم أن تسعد خان يونس وأهل خان يونس برؤية وجهك الجميل.

_ سآتي بشرط.. يصرخ أحمد: شروطك مستجابة يا صاحبة السمو دون أدنى تحفظ.

_ أن تكون لي للأبد.

_ للأبد وما بعد الأبد، سأصعد لاصطحابك رغماً عنك، فقد أوشك رصيد الهاتف الخليوي على النفاذ.

_ استمرت أمل بالضحك وهي تلوح له من خلف النافذة وقد بدت لوحةً من الجمال الرباني الذي لم تَعبث به أصابع البشر، وأمها التي

كانت تشهد درس التعذيب العاطفي الذي تقوم به ابنتها تجاه خطيبها وابن عمتها في آن واحد توكزها من الخلف طالبة منها الرفق بسمارة.

_ كانت المرة الأولى التي تزور فيها العروس منزل عمتها بصفتها الجديدة، حيث أبدع سماره المشهد حتى يرقى العظمة ساحرته التي اختطفها من حيّ الشيخ رضوان في مدينة غزة لبضع ساعات، وجعل من خبرته العسكرية كضابط متفرغ في المقاومة، أوامر وترتيبات في البيت حتى تليق العزومة بمقام أرفع زائرة في حياته، ارتبط بها رسمياً منذ أسبوعين فقط، بحيث أصبحت والدته وسكان المنزل جنوداً ينفذون قرارات عاشق ولهان، ولكن!! الكون يرقص في قلب سمارة، يطربه، يسحره، يعتقه من جفاف الوجد والغرام إلى بحر الوجد والغرام!!

رنّ جرسُ هاتفه الخلوي وهو يسحبُ الكرسي حتى تجلس عليه أميرة قلبه أمل لتناول طعام الوليمة فجميع من في البيت يلتقط المشهد الشاعري البليغ، تتنقل الابتسامة بين عيونهم، فسمارة يصنع التاريخ بوقوعه في الحُب، وإبداعه في ترجمة ذلك، يقرأ نص الرسالة والوجوه جميعها تنظر إليه، ترجوه ألا يفعلها، ألا يقتل اللحظة لأي سبب كان، لكنه وقد تلونت قسمات وجهه وهو ينظر بأسف لخطيبته، قال: أعتذر لكم جميعاً، هناك استدعاء يجب أن أتحرك بسرعة، لن أتأخر بإذن الله.

_ حاولـت والدتـه التحـدث إليه وهو يـسرع بالخروج من المنـزل، علّها تقنعـه بالاعتـذار والبقـاء، ولكـن دون جـدوى، فلقد تلقى أمـراً بصيغة الشـيفرة للتحـرك إلى نقطـة 9 ومـن هناك إلى نقطـة (15) بأقصى سرعة ممكنـة، حيـث ركـب الدراجـة الناريـة وتوجـه إلى النقطـة الأولى ليجد محمـدًا بانتظـاره وقـد تلقـى بـدوره ذات الاسـتدعاء وبخفـة وحيويـة ركـب خلـف سـمارة الذي لم يكن كعادتـه: ما الخطـب أراك منزعجاً؟...

_ رد سـمارة وهـو يندفـع إلى الأمـام بسرعـة: الحبيبـةُ في الـدار والأكل عـلى الطاولـة، «واللـه يلعـن أبـو اليهـود والـلي جابهـم عـلى بلادنـا».

_ انفجـر محمـد أو «حُمكّـة» مـن الضحـك، وهـو يطـوي قدميـه الطويلتـين لأن طولـه يقـارب المتريـن إلا عـشر سـنتيمترات، حيـث كان عليهـما أن يسـيرا باتجـاه نقطـة (15) الواقعـة على الحدود مـع أراضينا المحتلـة عـام (48)، وفجـأة وهـما يعـبران أحد الشـوارع فـإذا بالدراجة الناريـة «الفزبـة» تنقلـب كلياً فيطـير الاثنان عـن الأرض بعد أن تعثرت الدراجـة بحجـر صغـير، وبـذات سرعـة التدحـرج عـلى الأرض نهـض سـمارة الـذي لم يصـب بـأذى وأوقـف «الفزبـة» التـي لم تتـضرر أيضـاً غـير أن «حُمكّـة» أصيـب بقدمه بجروح بسـيطة، لكن ذلـك لم يعقهما، فواصلا المسـير إلا أن وقـع الحادثـة جعل سـمارة يحيد عن خط السـير الأقـصر ويسـلك طريقـاً أطـول، فيسـأله حُمكّـة: الحادثـة أم غيابك عن الخطيبة؟!

- ابتسـم سـمارة الـذي سـمع الكلـمات بصعوبـة، وبعـد ربـع سـاعة

بالضبط وصلا النقطة في قرية القرارة الحدودية جنوب القطاع ليجدا علاء وإبراهيم بانتظارهما وقادة النخُبة في المكان: أحسنتم، كانت هذه بروفا لمدى جهوزيتكم وسرعة تحرككم، وقد نجحتم بامتياز، بارك الله فيكم، كونوا في حالة تأهب دائمة، وحافظوا على أقصى درجات السريّة.

- كانت هذه كلمات مستقبليهم من قادة النخُبة الذين كانوا يدركون أنها مسألة وقت حتى تتحول التدريبات والخطط إلى واقع، فنُذر العدوان باتت قريبة.

- عاد أربعتهم إلى نقطة (9) في بيت علاء لتقييم البروفا، غير أن سمارة اعتذر وغادر مسرعاً بعد أن أخذ هاتفه الخلوي الذي تركه كبقية «الزُمرة» في نقطة (9) وتلك قاعدة أمنية تحظر اصطحاب الأجهزة الخليوية إلى الأماكن الحساسة، كونها في عُرف المقاومة الفلسطينية جواسيس متحركة كانت قد أودت بحياة الشهيد المهندس يحيى عياش عندما تمكن العدو من الوصول إليه عبر تفخيخ الخليوي وتفجيره، أما الزمرة فهي أصغر تشكيل عسكري يضم خمسة مقاتلين وقد ضحك قائدها علاء وهو يرى لهفة سمارة للمغادرة: في أمان الله أيها العاشق، واحذر الطريق حتى تصل سالماً للأحبة.

- وعندما وصل العاشق للبيت، كانت قد مرت ثلاثون دقيقة هي الدهر بالنسبة له، حيث كانت العائلة تحتفل بعروسهم بعد تناول الغداء: السلام عليكم، قالها وهو يطلب السماح بعينيه، فجاءه الرد

بـذات الطريقـة، لكـن والدتـه الطيبـة حاولـت أن تـرد اعتبـار أمـل: لم يكـن يجـدر بـك المغـادرة، فنحن لسـنا في حرب.

- وبصـورة تلقائيـة فاجـأت الجميـع، تصـدت أمـل للجـواب منقـذة سـمورها مـن الإحـراج: لم يحصـل شيء يـا عمتـي، نحـن متفقـان عـلى ذلـك، الأهـم أنـه رجـع سـالماً.

«ولدي من جيش النخُبة»

- أرقُّ غـزة، كابوسـها، عنادها، رجالها، نسـاؤها، أطفالهـا، رمالها، لم يعد يسـتقيم معهـا شيء!، فقـد رفعـت لهـا غـروزني، بـيروت وليلنـين غـراد القُبعَـة مرتـين: شـتاء ألفـين وثمانية، وجحيـم ألفين واثني عـشر، حربان عالميتـان عـلى ثلاثمائـة وخمسـة وسـتين كيلـو مـتراً مربعًـا، محشـوة بالبـشر غـير العاديين!.

- لم يعـد بمقـدور الغـزاة اسـتيعاب هزيمـة ثالثـة، تسـتحلف طائراتهـم التـي يصعـب رؤيتهـا في سـماء غـزة عندمـا تلقـي سـفالتها وتهـرب، أجسـادَ الأطفـال المحروقـة أن ارفعـي الرايـة البيضـاء، فقـط أسـمعينا صـوت هزيمتكـم، أبـقِ عـلى هيبـة جيشـنا الـذي بـات يُقهـر، لا نريـد حسـم وجودكـم، فقـط أسـكتوا صواريخكـم.

- اليـوم الأول والثـاني مـن الحـرب، لم يتركا مجالاً للشـك، أن العدو ينوي فقـد أعصابـه، أو يوشـك أن يعلـن الجنـون، تحرِكُـهُ حقيقـةٌ يرفـض أن يستسـلم لهـا، أن تـوازن رعـبٍ يحـدث عـلى عينيـه قـادمٌ مـن غـزة ولا

يمكن إنكاره، يقر قادة جيشه بذلك، ويأبى سياسيوه البلهاء حديثو العبث مع غزة، التسليم بتلك الحقيقة، فيدفعون باتجاه الدخول البري، فما عادت آلاف الأطنان من المتفجرات التي تمطر غزة، تحرقها، تدمر بنيانها، ترعب أطفالها قبل موتهم، وترسم مشهداً سينمائياً لن يستطيع أمهر المخرجين صنعه، تشفي غليل صدورهم وقد تعودوا أن يُضاف دمُ الفلسطيني في رصيد مزاوداتهم الحزبية يوم الانتخابات.

- يقف أبو علاء فوق السطح، يبكي ويضحك، وعيناه ترصدان السماء، تستحلفه زوجته أن ينزل بسرعة حتى لا يصاب بمكروه، فيهز رأسه: المسكينة تظن بأن هذا السقف المتهالك سيمنع الصاروخ من تمزيقنا؟!

- «يا زلمة» انزل، أستحلفك بالله ألا تفجعنا فيك، يكفي خمسون شهيداً في يومين.

- أريد أن أكون شاهداً على العزة....!.

- تقترب منه وعيناها محمرتان: علاء!.

- ينخطف لونه وهو يسأل: ما به هل...!

- لا يا رجل، ابصق من فمك، لا سمح الله، لكنه يستعد لأمر.

- نزل الزوجان بسرعة إلى داخل البيت وعلاء لا يزال في غرفته، تقول

أم علاء: كان أمام المنزل مع صاحبه ينويان الذهاب لتشييع شهداء آل الحاج، وفجأة رأيته ينظرُ في هاتفه الخليوي، فاعتذر لصاحبه ودخل بسرعة إلى غرفته.

- اسمعي، مهما حدث، لا تعترضي طريقه، ولا تنزلي دمعة.

- لكن....!

- من غير لكن، أنت تعرفينه جيداً، توكلي على الله، وادعي له.

- ثم دخل عنده إلى الغرفة، فوجده يجهز حقيبته الكبيرة: السلام عليكم يا ولدي.

- رد علاء وهو يخرج بندقية الكلاشنكوف من خزانته ليضعها في الحقيبة، إلى جانب جعبته ولباسه العسكري، وهي العهدة التي يحافظ عليها كحفاظه على حياته، فيبتسم الأب الذي لم يتدخل سابقاً في خيارات علاء الذي انضم إلى المقاومة رغم شعور الخوف الطبيعي على ولده، وطلب منه السماح بلمس هذا الشيء، ولما كان له ذلك، قبّله، واحتضنه ثم قال مخاطباً إياه: أنت الذي يحارِبُنا العالم بسببك، يحاصرنا، يجوعنا، يمنعنا من السفر، يقطع عنا الغذاء، ويرمينا بقذائفه وصواريخه؟!

- كان علاء يبتسم وهو يستمع إلى كلمات والده: يا والدي يقصدون الصواريخ وليس البنادق.

- صحيح أنني لست متعلماً بقدرك أيها الذكي، لكن الله _عز وجل _ رزقنا عقولاً حتى نحترمها، وأنا أحترم عقلي!

- العفو يا والدي، لم أقصد.

- أعرف. أعرف فأنا أتحدث عن الذين يستحمرون أنفسهم ويظنون أن الناس عبيد لهزائمهم.

- جلس علاء على طرف السرير مهتماً لسماع كلام والده، بائع الفلافل، أو الطعمية على قول إخواننا المصريين، في مقصف الجامعة حيث كان يساعده في أوقات فراغه، وقد كانت لديه رغبة كبيرة لسماع والده، قبل أن تجتمع لديه بقية « الزُمرة».

- بالأمس وأول أمس، كنا نأكل الضرب على رؤوسنا، نموت دون أن نؤذي عدونا، ولما جاء من يُحقق لنا الحد الأدنى من القوة، سخُرنا من ذلك ووصفناه بالعبثي.

- لكن يا والدي هذا الكلام سيبقى موجوداً، مادام هناك أناس غير مقتنعين بجدوى المقاومة!

- الشيء الذي لا أستطيع فهمه، كيف لإنسان يرى القتل والاستيطان والاعتقال والتهويد للقدس، ويبقى يفكر بلاعقلانية ولا بطيخ أصفر.

- ضحك علاء لدى سماعه الجملة الأخيرة: الصحيح أننا في الجامعة لم ندرس هذه العبارة، ومع ذلك هؤلاء يصفون أنفسهم بالعقلانيين.

- العقـل يـا ولـدي يقـول: اتفاقيـة أوسـلو جـاءت، عندمـا كنـت طفـلاً، حتـى توقـف الاحتـلال عنـد حـده، لكـن الاحتـلال اسـتمر بجرائمـه وعدوانـه ولم يتوقـف، بـل ازداد سـوءاً، وبـدلاً مـن التحـرر مـن هـذا الفشـل أصبحنـا أسرى لـه، وكل شيء مناقـض لهـذا النهـج يصبـح عبثياً.

- منطقهـم يقـول: صحيـح أن أوسـلو فشـل في تحقيـق مـا يطمـح إليـه شـعبنا، لكن الخيار الآخر كارثي وجلب في السـابق على شـعبنا الويلات.!

- قاطعه والده بحِدّة: لا تردد هذه الخزعبلات.

- هم يقولون ذلك ولست أنا.

- هـم كاذبـون، وأول شيء يدحـض ذلـك مـا أسـلفته لـك، أن الصلـح مـع الاحتـلال لم يوقـف الجرائـم بحـق شـعبنا، بـل اسـتغله الغاصبـون لصالحهـم، والويـلات جـاءت عندمـا جعلنـا خيارنـا الوحيـد، مسـيرة السـلام الخـادع والكاذب مـع الاحتلال، وتركنا القانون الإلهي والإنسـاني والطبيعـي بـضرورة الدفـاع عـن أنفسـنا ولـو بالحـد الأدنى مـن القـوة.

- اسـتمر عـلاء الـذي أعجبـه الحديـث باسـتفزاز والـده: هـم يقولـون، أقـول هـم، ولسـت أنـا، إن السـلاح لم يترتـب عليـه إنجـاز فعـلي، إنمـا أدى مهمتـه سـابقاً في وضع فلسـطين عـلى الخارطة الدولية لكنه فشـل في تحريـر شـبر مـن فلسـطين، إن العـودة لـه في ظـل الضعـف العـربي والانحيـاز الغـربي والتفـوق السـاحق للعـدو، يُعتـبر انتحـاراً!!

- على الرغم من علمي بلعبتك هذه، إلا أنني أرغب بصفعك فقد نجحت باستفزازي وقد تركتُ النقاش العقيم هذا منذ زمن بعيد، ولكن اسمع، لا تصدق هذا الكلام، فالذي أوصل قضيتنا في البدء إلى العالم هي ثورة الستة وثلاثين التي أقضت مضاجع الصهاينة والاحتلال البريطاني فتكالب عليها الزعماء العرب وأجهضوها عندما أقنعوا القادة السياسيين بالحل السياسي المزعوم، الذي أحبط الثورة الفلسطينية المعاصرة في الستينات، فأفكار التسوية السياسية عام أربعة وسبعين هي التي مهدت لتآكل روح الثورة والعمل الفدائي.

- وماذا تقول عن الانتفاضة الأولى التي قرأنا، سمعنا عنها، ألم يكن العقلانيون هؤلاء جزءاً منها؟!

- صحيح أنهم أصبحوا جزءاً منها في البدايات، لكنها عندما بدأت تتطور طبيعياً لدى ظهور ملامح العمل المسلح، جاء مؤتمر مدريد عام واحد وتسعين وتبعته أوسلو ليجهض هذه الانتفاضة، ثم كفاهم ضحكاً على أنفسهم، فكيف هرب المحتل عام ألفين وخمسة من قطاع غزة؟! ألم يكن بالسلاح العبثي، وبتلك الصواريخ البسيطة؟! ثم بالله عليك منذ متى كانت آخر مرة تطأ فيها قدم جندي صهيوني أرض القطاع؟!

- منذ حرب الفرقان عام ألفين وثمانية.

- لا أيها الفالح، فتلك كانت معركة، أقصد وجوداً طبيعياً ينغص

حياة الناس، يعتقل الشباب، يرعب الأهالي، هل تعلم أن دورية عسكرية واحدة كانت كفيلة عام ستة وثمانين بإغلاق مدينة غزة؟ والآن لو جاءت كل جيوش العالم لن تستطيع فعل ذلك؟! هل تعلم أنه في الضفة الغربية الآن وأنا أتحدث معك، تستطيع بضع دوريات اقتحام أي مدينة تشاء بعد أن تجبر قوات الأمن الفلسطينية بالتزام مقراتها والإغلاق على نفسها؟!

- يا والدي، هل تعمل في قيادة المقاومة ولا أعلم بذلك؟!

- ليس بالضرورة «يا روح أمك».

- لحظتها دخلت الزوجة، الأم التي كانت تسترق السمع من الصالون: يعمل في قيادة العائلة، يكفينا أنت يا حبيبي، وأيضًا يصعد على السطح دون خوف من الطائرات.

- بالله عليك يا امرأة ألم تفرحي وأنت تسمعين الراديو يقول: المقاومة تقصف مدينة حيفا بصاروخ R160؟!هل تعرفين معنى ذلك، يعني أننا أصبحنا نملك صاروخاً يصل مداه إلى مائة وستين كيلو متراً.

- تدخل علاء بسرعة: وأيضًا صُنع في غزة.

- صرخت أم علاء: يا عالم، يا ناس، ما علاقة الصاروخ وحيفا بتعريض حياتك للخطر؟!

- نظر إليها زوجها وهو يهز رأسه: لأنني أريد رؤيته وهو ينطلق من أرض غزة إلى أرضنا هناك، هل فهمت لماذا؟!

- ثم ساد صمت مفاجئ، كان يختبئ من وراء الحديث الذي دار منذ البداية، وكأن ثلاثتهم كانوا يؤجلون تلك اللحظة التي لا مفرّ منها، ومع ذلك، عاد الوالد الحزين لسؤال علاء: هل سمعت بيان حكومة الاحتلال المصغرة؟! لقد استدعت أربعين ألفاً من قوات الاحتياط وأطلقت على عدوانها اسم «الجرف الصامد».

- هزّ علاء رأسه: نعم يا والدي وربما يستدعون المزيد، وسيخيبون بإذن الله.

- لكن جماعتنا لم يقفوا مكتوفي الأيدي فقد أعلنوا استدعاءهم لجميع الوحدات المقاتلة «النخبة» الوحدة الصاروخية، المدفعية، وها هم يدكون الاحتلال بقوة، مائة صاروخ كل يوم وأطلقوا على رد العدوان «العصف المأكول».

- عاد الصمت مجدداً وعلاء لا يجرؤ على إنهاء الحديث والاستئذان، وفجأة قال الوالد: وأنت يا ولدي، مع من تعمل، لم نتعود عليك في الحرب الأخيرة أن تجلس هنا وإخوانك يقومون بواجبهم، نعرف أنك معهم، لكنك تخيفنا، هل يجوز لنا أن نخاف؟

- بكت الأم التي تجلس إلى جوار علاء وهي تضع يدها على كتفه فسارع علاء بالقول: وحدوا الله يا جماعة، أنتم تعلمون جيداً أنني

مقاتل وجندي ينتظر أوامر قيادته، كل القصة أنني لا أعمل في الوحدة الصاروخية التي تدير المعركة إلى الآن ولا المدفعية.

- إذاً تعمل في النخبة، كهؤلاء الشباب الذين سبحوا إلى شاطئ زيكيم؟!

- قالها الأب يريد أن يستنطق ولده: يا أبي الحبيب، هذا ليس مهماً، كلنا مجاهدون، سواءً كنت في النخبة أو غيرها حتى أن الناس تلقى الله وهي في بيوتها، فلا تقلقوا ووكلوا أمركم إلى الله، المهم ألا ينتصر علينا المحتل ولا ينال من عزيمتنا وروحنا المعنوية.

- لحظتها فقط، أنقذه من الموقف الصعب، جرسُ البيت الذي كان يقف قربه إبراهيم وأحمد ومحمد، وثلاثتهم يحمل حقيبته التزاماً بما جاء في الإشارة التي أوقفت نظام الحياة اليومي الذي كانوا يتبعونه: حياكم الله، الوصول بالموعد.

- قالها علاء وهو ينظر إلى ساعته بعد أن تحرر من خوف والديه وحرصهما على كسب أكبر قدر ممكن من الوقت بالحديث معه.

«الاستدعاء للمهمة»

- جلس أربعتهم داخل الغرفة الصغيرة المصنوعة من العصي والأشياء البسيطة على سطح المنزل بعد أن تم شحن العتاد إلى وجهته الصحيحة التي لا تزال «الزمُرة» تجهل مكانها بالضبط عملاً بالقواعد الأمنية الصارمة، والمقاتلون الثلاثة ينتظرون من علاء أن يكشف لهم طبيعة المهمة ومكانها ووقت الانطلاق، حيث تود عينا سمارة أن تسرق الكلمات من ملامح علاء الذي همس قائلاً: لقد عملنا ورجونا وتوسلنا لإخواننا أن نكون في النخبة حتى نصل إلى هذه اللحظة، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد الذي يتمناه كل مخلص ومجاهد، بل اختارنا قادتُنا لتنفيذ مهمة غاية في الخصوصية.

- لحظتها، انفعل سمارة وبكى وهو يطلق كلمات التكبير: الله أكبر ولله الحمد.

- فانفعل الجميع وهم يضعون أيديهم على فمه حتى لا ينكشف الأمر ووجوههم تتفجر حماسة وإقدامًا وبسالة، ثم أكمل علاء:

وقبـل أن أكمـل سـأقول أمـراً قـد يغضبكـم لكـن الأمانـة تقتـضي أن تسـمعوا ذلـك!!

- فتدخـل محمـد الـذي اختلفـت معـالم وجهـه بسرعـة: قـل ما شـئت، المهـم ألا تذكـر شـيئًا غـير الالتحـام المبـاشر مـع جنـود الاحتـلال، فلقـد تحملنـا كثـيرًا في التدريبـات والمراحل من أجل هـذا اليوم وهذه المهمة.

- يـا إخـوة، هـذه المهمـة، طابعها استشـهادي، صحيـح أننـا تدربنا على البقـاء في جميـع الظروف، لكن بعـض المهمات كالتي نتحـدث عنها...!.

- قاطعـه إبراهيـم: يـا أخـي الحبيـب نحـن نعـرف بعضنـا جيداً ولسـنا مـن الذيـن يتراجعون.

- اسـتطرد عـلاء: ومـع ذلـك كان يجـب فتـح المجـال لمـن أراد التراجـع، وهـذه توصيـة قـادة النخبـة الذيـن يتأهبـون لتنفيـذ مهماتهـم قبلنا.

- فاسـتنكر سـمارة: لم أحبهـا منـك يـا عـلاء وأنـت أعلـم النـاس بنـا، فو اللـه الـذي رفـع السـماء لـئن تراجعـت قدمـي خطـوة لأقطعنها.

- الآن، ماهـي المهمـة؟! هـل سـنفعل شـيئاً كالـذي فعلـه إخواننـا في زيكيـم؟! قالهـا محمـد وهـو يرجـو عـلاء تصديـق مـا يتمنـاه: أمـا عـن المهمـة فسـتعلمونها بعـد سـاعتين مـن هـذه اللحظـة ولـن تكـون أقل مـن ذلـك، أما المكان فسـتعرفونه في المرحلة الثانيـة، حيث تكون الأولى بالانطـلاق عـلى الدراجـات النارية إلى نقطـة رقم 561 وتـرك الدراجات

هناك والمشي على الأقدام باتجاه نقطة (19)، والآن معكم بعض الوقت، تستطيعون البقاء هنا.

- لكن سمارة تذكر أمراً: يا إلهي!

- فتعجب الجميع: ما بالك؟!

- لم أطعم الطيور والعصافير، ضحك علاء وهو يُعلّق: لقد ذهب فكرُنا إلى مكان آخر!.

- فقال سمارة وهو يغُادر: هذا المكان ومن فيه لا يفارقني فكيف لي أن أنساه!.

- عندها تحمس إبراهيم الذي كان يلحق بسمارة، على رفع الحمال: أمسك هذا الخليوي وتحدث مع حبيبتك قدر ما تشاء.

- ابتسم سمارة الذي كان يعلم أن إبراهيم الضابط برتبة مساعد في جهاز الشرطة في غزة مشترك في خدمة الجوال الأقل كلفة، فشكره وهو ينزل مسرعاً باتجاه البيت ورفاقُه الآخرون ممن يحوزون على قدر لا بأس به من الأهمية ينتظرون طلته المعهودة في أوقات عدة، حتى أن خطيبته بدأت تغارُ من هذه الرفقة: حبيبتي تغارين من عصافير تشدوك لحناً في تغاريدها؟! فتسكتها تلك الكلمات.

- بقي محمد جالساً فوق السطح، يَعْلَقُ في رأسه ما حدث له قبل لحظات، عندما دخلت عليه أمه وهو جالس على سريره وإلى جانبه

حقيبـة ال أر ـبي ـجـي وقذائفهـا الأربـع، يحـدقُ في جنبـات الغرفـة وتحديـداً في صـورة أصدقائـه الثلاثـة، محمـد داوود، خالـد أبـو بكـرة ومحمـد القصـاص، أبطـال وحـدة النخبة الذيـن كمنوا لقـوات الاحتلال داخـل نفـق «بوابـة المجهـول» الـذي اكتشـف داخـل حـدود الأرض المحتلـة عـام 48قبـل الحرب بعدة أشـهر وهـي المرة الأولى التي يشـعر فيهـا المحتـل بالخطـر الاسـتراتيجي الذي يشـكله هـذا السـلاح الجديد، حيـث لم تشـأ المقاومـة أن يظفـر الغاصبون بهذا الإنجـاز دون تعليمهم درسـاً، وهذا مـا فعله الأبطال الثلاثـة عندما اسـتدرجوا القوات الخاصة إلى إحـدى تفرعـات النفـق وفجروهـا بهم، مـما أدى إلى قتـلى وجرحى في صفـوف العـدو واستشـهاد الثلاثـة: مـا بـك يـا عمـري، لمـاذا عـدت للبيـت، ألم تقـل إنـك تريـد الذهاب لتشـييع الشـهداء؟!

- بـلى يـا أمـي ولكـن هنـاك ـــــ،صمـت محمـد في حـضرة الموقـف ورهبتـه، وأمـه تنظـر إلى الحقيبـة التـي طالمـا سـألت اللـه ألا يضطـر حبيبهـا «حُمكـة» لاسـتخدام مـا فيها وقـد علمت أن ولدهـا الصغير قد كـبر وأصبـح محـل ثقـة المقاومـة التـي وضعتـه في سـلاح الـدروع وقـد ظنـت للحظـة وهي تشـاهده مغرماً بكرة القدم، يتابـع كأس العالم أولاً بـأول كلـما سـمحت سـاعات الكهرباء بذلك رغـم القصـف والدمار، أن الشـباب قـد اكتفـوا بغيره.

لكـن الواجـب قـد خيّـب ظـن أمومتهـا وخوفهـا عـلى ولدهـا الأوسـط والعنيـد: ألم تتفـق مـع والـدك وإخوتـك عـلى حضـور مباريـات الليلـة معاً؟!

- أمسك يدها وطبع قبلة عميقة عليها: سأذهب يا أمي ولا أدري ماذا سيحدث.

- دمعت عينا أمه، تسارعت دقاتُ قلبها، ارتعد جسدها، تود لو أن هذا الذي يخاطبها لا يزال جنيناً في أحشائها، أو صغيراً يحبو أمامها، صحيح أنها ربته على حب دينه ووطنه، لكن عاطفة الأمومة الدائمة ترجو أن يلتصق بها: ماذا أقول يا ولدي؟!

- فقط، ادعي لي ولإخواني أن ينصرنا الله ويثبتنا.

- ألا تنتظر حتى ميعاد الفطور حتى تفكَ صيامك معنا؟!.

- لا أستطيع يا أمي، أنا جندي والوقت أهم شيء لدي.

- احتضنته، وأغرقته بالقبل وصوت بكائها الصامت يتسلل إلى صدر محمد، وفجأة سألها: أريد أن أسألك يا أمي عن شيء يشغلني منذ كنت صغيراً.

- اسأل يا حبيبي.

- من أطلق عليّ لقب حَمُكة؟!.

- ضحكت أمه وهي تمسح دمعها بكف يدها التي كانت خضراء من أثر فرم الملوخية: ابنة عمك «آية» عندما كنتما صغيرين، حيث كنت مولعًا بالرسوم المتحركة فأسمتك حَمُكة لوجود شخصية أثرت

فيـك كثـيراً وقريبة لاسـمك وهكـذا أصبحـت حَمُكة.

- على الأقل إذا استشهدت أعرف من أسماني حَمُكة.

- فصفعتـه أمـه عـلى وجهـه وهـي تـردد: أنـا قبلـك يـا حبيبـي، لا تقل ذلك.

- ثـم خرجـا معـاً إلى الصالـون وهـي الغرفة التي تتوسـط البيت فسـلم عـلى والـده الذي سـأله: إلى أين؟!.

- لتشييع الشهداء يا والدي.

- ثـم أسرع بالخـروج مـن المنـزل وقـد أثـار الجميـع مـا دون أمه لدى تقبيلـه يـد والده.

«تحت سماء تمطر الصواريخ»

- الأربعاء _ التاسع من تموز -2014مساءً قبل الغروب بقليل، ثالث أيام الحرب الجوية، منطقة القرارة _ جنوب شرق قطاع غزة.

_ كانت غزة، نكزاكي وهيروشيما معاً، تحترق بنيران الصواريخ التي لم تهدأ منذ اثنين وسبعين ساعة، غير أن إمبراطورها لا يملك قلماً لتوقيع استلامها كما فعل صاحب اليابان، فقد كسره منذ اقتلعوه طفلاً من بيته في يافا ورموه تحت الشمس في غزة، واستبدله حجراً فسكيناً فبندقية ثم صاروخاً عنيداً أقسم أن يُلقي التحية على حيّ العجمي في يافا وهو يمرُّ من هناك، فما عادت طفولته السياسية تقبلُ القسمة على الخداع:

ستعودون إلى بيوتكم التي طردتم منها بعد عدة أيام، فجيوش العرب ستأكل المحتلين وتعيدهم من حيث أتوْا!، لكن الجيوش تلك نسيت أدوات الطعام في المنازل فتعذر الأكل وتأجلت الوليمة لموعد آخر لم تسمح بها الظروف منذ سبعة عقودٍ إلاّ قليلاً.

_ وصل أربعتهم إلى نقطة561 المحددة سلفاً في قرية القرارة الزراعية المحاذية لخطوط العدو، حيث منزل أحد المجاهدين الموكل إليه إخفاء الدراجتين الناريتين، حينها تحدث علاء: نحن الآن في منطقة خطرة، لا تبعد عن العدو كثيراً، لذا سنتحرك عند مغيب الشمس بصورة فردية حتى لا تكشفنا الطائرات بدون طيّار، وسنصل إلى نقطة 19، هناك سيكون بانتظارنا عضو الزمُرة الخامس والذي سيكون جزءًا من المهمة.

_ وهنا سأل سمارة: لم تكشف لنا طبيعة المهمة؟!.

_ الآن ___ وقبل أن يكمل علاء، علق سمارة: وإذا لم يدخل العدو برّاً، ألن نذهب إليه، ألم نتدرب على ذلك؟!.

_ يا أحمد، تدربنا أيضاً على الصبر، فربما تنتظرنا مهمة أخرى من هذا النوع، والآن يجب التأكد من ترك الأجهزة الخليوية، ودع التفاصيل للأمام.

_ كل شيء تمام _ قال إبراهيم الذي كان يبتسم وهو يرى حماسة أحمد التي تضفي نوعاً خاصاً من الشجاعة والإقدام على العمل، وهو الذي عاصر الحروب الثلاثة جندياً في كتائب القسَّام لذا تم اختياره عضواً في هذه المهمة لخبرته ودرايته في هذا النوع من المهمات، رغم خصوصية وضعه العائلي كمتزوج وأب لطفلين.

- وتحت دوي الانفجارات التي لم تتوقف، وأصوات الطائرات التي

تصطاد كل متحرك على الأرض، تقدم الرجال الأربعة، يحتمون بالبيوت والأشجار يتحايلون على التكنولوجيا التي تجوب سماء غزة، وترصد الحدود بشكل خاص، يدفعهم إصرار لا يمكن أن يفهمه غير المظلومين والمقهورين والمحاصرين، ينام أقرانهم في الإنسانية وهم يحلمون بقضاء عُطلة الصيف في باريس، تشغلهم هموم الأوطان فيضعون ورداً على قبرِ إخوتهم ويمضون، والاستثناء من بينهم، يصاب بعقدة العجز أمام التلفاز يندب حظه وهو يذرف الدمع على غزة وما يدري أن الأطفال هنا يبكون عليه.

- كان عماد يرقب مقدمهم، ينتظر بجوار المسجد الأقرب للمكان المتفق عليه، يسألُ الله أن يصلوا سالمين وإلاَّ لن يسامح نفسه أنه لم يحضرهم واحداً تلو الآخر ولو اضطر لخرق كل القواعد الأمنية، تحاوره نفسُه: لماذا كل هذا القلق؟!.

- عجيبةٌ أنتِ وكيف لي الهدوء وهم في رقبتي الآن ولم يصلوا بعد؟!.

- لقد أصررتُ على الالتحاق بالنخبة والإشرافِ بنفسك على موقع المهمة، والآن ترتعدُ خوفاً؟!.

- اصمتي ولا تذكري الخوف، فو الله ما أخافُ عليكِ ولكن على تلك الأرواح التي تسير تحت سماءِ تمطرُ الصواريخ.

- وما هي إلاّ لحظات، حتى سمع صوت الإشارة المتفق عليها، فِانفرجت أساريره وتقدم مصافحاً علاء الذي سبق أن تعرّف عليه

لـدى إيصـال العتـاد العسـكري ظهـراً، وبالطبـع تعـرّف عـلى إبراهيـم والثلاثـة يسـيرون بهـدوء وسرية تامـة بمحاذاة بيت عـماد الذي لا يبعد سـوى عشريـن مـتراً عـن المسجد الـذي نشـأ وترعـرع فيه.

- قـال عـماد وهو يشـير إلى جهة اليمين: هـذه البيوت الثلاثـة، لعائلتنا، الأول فيهـا لأهـلي.. وبعـد خمسـة عشر متراً قـال: وهذه الغـرف الثلاث سـتكون بيـت الزمُـرة الجديـد، حيث كانت ثـلاث غرفٍ شـيدت حديثاً، مصطفة الشـكل متتالي يشـبه صفوف المدرسـة ولكن بحجم أصغر، غير أنهـا لا توحـي مـن خلال مظهرهـا الخارجي أومـا تمكن عـلاء وإبراهيم مـن رؤيتـه اعتـماداً عـلى ضـوء القمـر، أنهـا للسـكن الآدمـي، ولم يكـن في واردهـما مجـرد التفكـير بغـير ذلـك، فهـما يعلـمان كيفيـة الزمُرة أن إحـدى خصائـص عملهـم كنخُبـة، العيـش في الظـروف الصعبـة مهـما بلغـت قسـوتها، مـا دامـت سـتؤدي إلى نتيجـة تمنـع مـا هـو أسـوأ من ذلـك، وفجـأة اعتـلى عـماد جـدار الغرفـة الأولى التـي لم تكن مسـقوفة ويرتفـع جدارهـا عـن الأرض 120سـم، ثـم طلـب مـن المقاتلـين اتباعـه بسرعـة وهـدوء، بعدهـا نزلوا إلى داخل الغرفة المكشـوفة للسـماء التي كان يربطهـا بالغرفـة المحاذيـة بـابٌ سرعـان مـا فتحـه عـماد بسرعـة، ليدخـل الثلاثـة إلى مفاجـأة أضحكـت عـلاء: لقـد ابتسـمت المهمـة لسـمارة، أظـن بـأن المقـام سـيطيب له.

- حيـث كانـت الغرفـة بيتـاً للحـمام مسـقوفة بالزينكـو «الحديـد البسـيط»، لكـن عـماد اسـتطرد بالقول: على رسـلكما، فالمقـام ليس هنا _ قالهـا عـماد وهـو يبتسـم متوجهـاً إلى النافـذة الجنوبيـة المطلـة على

الغرفـة الثالثـة والأخـيرة، وقد دخلوها أيضـاً ليجدوا أنفسـهم في الغرفة التـي ينبغـي أن تكـون الأولى لمـن أراد الدخول إلى الغـرف الثلاث حيث يوجـد فيهـا باب رئيس مغلق ونافذة مغلقة ومسـقوفة أيضـاً بالزينكو، لكنهـما تطـلان عـلى ناحيـة الـشرق المشرفـة عـلى المنطقـة الحدوديـة، مـع العـدو والتـي تبلـغ مسـاحتها قرابـة الكيلـو مـتر الواحـد فقط مما يجعلهـا عرُضة للكشـف مـن جانب عيـون الاحتلال وأجهزتـه المتطورة، رغـم وجـود بيـت لأحـد أقـارب عـماد يسـاهم في التغطية عـلى مدخل الغرفـة كونـه يقـع ما بـين الغرف الثـلاث والشريط الحـدودي، وهذا ما يفـسر مجيء عـماد بصورة عكسـية.

- كانـت الغرفة الأخـيرة مخزناً للحبوب «والتبن» المسـتخدم للحيوانات، فعـماد ذو الأصـول البدويـة مـن عائلـة مزارعة تشـتغل بفلاحـة الأرض وتربيـة الماشـية وتلـك حـال قريـة القـرارة الحدوديـة التـي بقـي لهـا هامـش بسـيط مـن الأرض تعتـاش منها نظراً لأن غالبيـة الأرض لا يمكن الاقـتراب منهـا كونهـا منطقة حرام، تشـكل خطـراً عـلى الصهاينة الذين ترعبهـم غـزة حتـى عندمـا يفلـح أهلهـا الأرض، فلـم يعـد بمقدورهـم اسـتيعاب مجـرد رؤيـة فـأس أو امـرأة تنحنـي لتعانـق أنفاسُـها تـراب الحقـل، فسـكان المسـتوطنات الجبنـاء باتـت تلاحقهـم أصـواتٌ مِـن تحـت أقدامهـم يقولون إنها لأشـباح غـزة، الذين ابتكروا سـلاح الأنفاق الهجوميـة الأكـثر رعبـاً لقـوات الاحتـلال المتمركـزة عـلى حـدود القطاع وللمسـتوطنات التـي تُسـمى غلاف غزة، وكان أبرز اسـتخدام عسـكري لهـا عـام ألفـين وسـتة، عندمـا حفـر المقاومـون نفقًـا يمتـد إلى داخـل

معسكر لجيش العدو خارج قطاع غزة يصل طوله إلى مئات الأمتار، حيث تمكنوا من قتل عدة جنود وأسر العريف في قوات المدرعات «جلعاد شاليط» الذي تم مبادلته بألف من الأسرى الفلسطينيين في تشرين الأول من عام ألفين وأحد عشر، وكأن رجال غزة يصرّون على تأدية التحية لإرث محمد الفاتح الذي استخدم سلاح الأنفاق الهجومية في إسقاط القسطنطينية التي كانت منطلقاً للحملات الصليبية: وأن غزة سيدي الفاتح، رمالٌ متحركة تبتلع الطارئين عليها، تزحف إليهم، تخرج من تحت مهاجعهم، وتقسم أن باطن الأرض غضبٌ كظاهرها وزحفها لامحالة ماضٍ إلى آخر حبة رملٍ تسكنُ أرضنا السليبة.

- ولقد بات واضحاً للعدو الصهيوني، أن أرَق سيده الأمريكي في فيتنام قد انتقل إليه بجدارة بعد أن أصبحت الشعوب المقهورة تتناقل إرثها المقاوم فيما بينها، ومعاول الفلاحين من الفايكينغ تحفر عشرات الكيلومترات حتى تصل إلى القاعدة الجوية للمحتل الأمريكي الذي حرق أجساد الأطفال بقنابل النابالم اللعينة، فتفجرها عن بكرة أبيها.

- وقف إبراهيم ينظر من حوله، يفكر في خطورة نصب الكمين في هذه الغرفة، وقد أخبر سابقاً ما يفعله العدو قبل دخوله البري من تنفيذ سياسة الأرض المحروقة تمهيداً لمحاولة السيطرة والاحتلال خاصة لحواشي المناطق الحدودية، وستكون المجازفة خطرًا كبيرًا.

- قطع عماد تخوف إبراهيم المنطقي عندما أزاح بيده قطعة خشب من تحت قدميه كانت تُغطي الجواب الذي بحث عنه إبراهيم قبل لحظات ولم تخنه ثقتهُ بقادته الذين تبدو إدارتهم للحرب الجوية حتى اللحظة، أنهم يتعلمون من تجاربهم السابقة وأن ذلك لم يعد مقتصراً على العدو الذي يملك مؤسسات لفعل ذلك.

فقد كانت فتحة النفق أوما يطلق عليه المقاومون «البئر» من الإتقان مما يجعل اكتشاف الأمر صعباً لمن لا يعرف مُسبقاً عن المكان، قال عماد صاحب الوجه الذي يفرض عليك ألا تشيح بوجهك عنه لبعثة الطمأنينة في نفسك في ظرف أنت بأمسّ الحاجة منه إلى ذلك، وهو يشير بيده إلى البئر: هنا في الأسفل، سنقيم أيها الأحبة إلى أن يشاء الله ونحقق ما خططنا له وجئنا من أجله.

- قال علاء الذي كان يجهل المكان لكنه يعلم بالتفاصيل: لنؤجل الحديث حتى يصل أحمد ومحمد، ودعونا ننزل إلى «الوصلة» بسرعة ليتسنى لك الذهاب لإحضار الأخوين.

- كانت فتحةُ البئر تتسع لنزول شخص واحد ويصل عمقها إلى مترين ونصف نزولاً وحُفرت في التراب الصلب المتماسك، وتم حفر مواضع هندسية للأقدام والأيدي سرعان ما استخدمها عماد وهو يتقدم النازلين إلى أسفل، حيث النفق الصغير الذي كان يرسم في شكله حرف اللام باللغة الإنجليزية ولكن عليك أن تجعله مبطوحاً على الأرض، لأنه مجرد وصولك إلى أسفل ستلحظُ تفرعاً طوله ثلاثة أمتار

ناحيـة الـشرق، وتفرعـاً أطـول ناحيـة الشـمال يبلـغ طولـه ثمانيـة أمتار وكلا التفرعـين مغلقـان باسـتثناء فتحـة البـئر، ويطلـق عـلى هـذا النفق «الوصلـة» لأنهـا صغـيرة ومحـدودة المهمـة، لكـن حفرهـا يتـم برؤيـة تتوافـق مـع الهدف العسـكري الذي حُفـرت من أجله، تم إنـزال العتاد العسـكري والطعـام والمـاء ثـم نـزل عـلاء وإبراهيـم، حينهـا قـال عماد مازحـاً وهـو يصعـد مجـدداً: تفضـلا البيـت بيتكـم، لا تخجلا.

- وعـلى الفـور أضـاء الاثنـان مصباحيهـما المثبتـين عـلى الـرأس وهـما يبتسـمان، وبـدءا بتفقـد الوصلـة بعـد ارتدائهـما الجعبـة «الصدريـة» التـي تحـوي مخـازن الرصـاص والقنابل اليدويـة الأربع التـي ينبغي أن تكـون مـع كل مقاتـل، فالجهوزيـة تبـدأ منـذ اللحظـة الأولى في الكمين نظـراً للخلاصـة التـي وصلـت إليهـا المقاومـة وهـي تـدرس السـلوك العسـكري لقـوات الاحتـلال الذي يعتمـد عنصر السرعـة الخاطفة لدى هجومـه إلى جانـب عنـصر المفاجـأة، لذلك يتدرب المقاتـل في النخُبة أن يكـون جاهـزاً حتـى عندمـا يكـون نائمـاً.

ومـن المفارقـات الخاصـة والعجيبـة أن هـذا المقاتل الفلسـطيني الغزي تحديـداً، قـد خـاض عـدة حـروب طاحنـة عمليـاً وليـس عـلى شاشـات العـالم الافـتراضي، في الوقـت الذي يشـيخ فيه ضباط الجيـوش العربية _ للأسـف _ ويذهبـون للتقاعـد دون معركة حقيقية مـع العدو الحقيقي للأمـة، قـد تعذرهم في ذلـك أو لا تعذرهم، فلا يـزال اللاجئون ينتظرون تنفيـذ وعـد قادتهـم بتمكينهم مـن العودة تحـت قوة السـلاح، ترنُ في آذانهـم أسـوأ عبـارة في الكون: «ماكـو أوامر، ماكـو أوامر».

تُضحِكُ الثوارَ عبارةُ الذل تلك، ويضحكهم أكثر قائلها، كما يبكيهم أن تبرر بسذاجة عاطفية كعادة العرب: والله، لقد كان يقولها الضابط العراقي وهو يبكي _ فليذهب كل من حمل سلاحاً ولم يستعمله في صدر العدو إلى ___يقولها عجوز لا يزال يستحلف القدر أن تمهله قليلاً علّه يعود إلى صفد، أما ولده الذي جاء قبل النكبة بشهريْن فيردد ما قاله الشاعر العراقي مظفر النواب: ولستُ أبزيٌ إلا الذي يحملُ البندقية كتِفاً ويطوي عليها شغافاً، وشغاف مُظفر أدركه رجالُ غزة الذين ما عادوا ينتظرون الجيوش حتى تعيدهم إلى أرضهم، لقد أصبحوا جيشاً شغوفاً لا تستقيم: ماكو أوامر، مع عقيدته القتالية.

- التحق الثلاثة بالكمين واكتملت بذلك الزُمرة وقد جلسوا متقاربين قرب أسفل «البئر» نظراً لانخفاض السقف في الوصلة إلى حدود 120سم في عرض لم يتجاوز «60سم»، ثم بدأ عماد بالحديث: أخوكم بالله عماد مهنّا، يشرفني الجهاد معكم، فهذا والله ماكنت أتمناه منذ زمن بعيد، أن أكون جندياً في النخُبة.

- حياك الله يا شيخ عماد، نسأل الله أن يرزقنا إحدى الحُسنيين في بيتك، رغم أنك لم تفصح لنا ما بداخل الكيس الذي تحمله، قالها علاء همساً وقد اتفقوا منذ البداية أن يكون الكلام على هذا النحو، نظراً لوجود الوصلة والغرف الثلاث قرب طريق فرعي يسلكه أقارب عماد في ذهابهم وإيابهم للمسجد: آه، أنا آسف، هذا عصير أهلاً وسهلاً وهو من البرتقال.

- فعلَّقَ أحمد وهو يرتدي جُعبته: وأي عصير ستسقينا عندما نغادرك؟!.

- إن شاء الله دم الصهاينة إذا فعلوها ودخلوا المنطقة، والآن يجب الإشارة إلى أمور مهمة.

- ثم بدأ بشرح طبيعة المكان وأسراره وكيفية التصرف لحظة الصفر والقواعد الأمنية التي يجب اتباعها في كل شيء، ودوره في هذه المرحلة من الحرب.

- بعدها تكلم علاء مفترضاً أن العدو دخل براً، فأخذ بوضع جميع السيناريوهات للتعامل مع القوات الغازية، ولم ينفض الاجتماع حتى عرف الجميع دوره وواجباته وفي تلك اللحظات القليلة نظراً لضرورة مغادرة عماد إلى المسجد حتى لا يفتقده المصلون ويحدث خلل ما، جاء أول اتصال من غرفة العمليات في لواء خان يونس بواسطة التلفون الأرضي _ السلكي_ الموصول بالنفق الصغير حيث تكفل قائد الزُمرة علاء بالرد: السلام عليكم، مهمة واحد على ثلاثة على الخط.

- وعليكم السلام، خط الحافلات أمان، الله يعطيكم العافية، هل كل شيء تمام؟

- الوضع ممتاز نحتاج إلى دعائكم.

- وفقكم الله، سنبقى على تواصل، كونوا في جهوزية كاملة.

- كيف سارت المعركة خلال الساعات الماضية؟!.

- تم توسيع دائرة استهداف مدن ومواقع العدو، لتصل إلى ديمونا وبالطبع حيفا حيث تم استخدام صاروخ «R160»إلى جانب ما تعرفون، الأمر الذي معناه دخول (5) مليون صهيوني إلى الملاجئ ولله الحمد، ولا يزال في جعبتنا ما يسر بالكم.

- كم وصل عدد الشهداء حتى الآن؟!.

- خمسون شهيداً جلهم من المدنيين، فالعدو يتعمد ذلك للضغط علينا، لكنه يفهم جيداً أن ذلك لن يهزنا بل يزيدنا تصميماً لعقابه على ذلك، وهذا منوط بنا جميعاً وفي مقدمتهم أنتم، والسلام عليكم أنا مضطر للقطع.

- غادرهم عماد حتى لا يغيب أكثر عن البيت والمسجد، وأسفل الأرض وباطنها، هناك حيث يعشق التراب أبناءه البررة، فليس ثمة فرق بين حيّ يقصده وعائد يلوذ إليه شهيداً، فعلاقة الفلسطيني بأرضه لا تشبه غيرها بالعالم.

هناك في بضع أمتار ضيقة، خانقة، ورائحة الرطوبة التي تشارك مع ما تبقى من أكسجين في صناعة المشهد، توزع أربعتهم بهدوء لا تدري- إن كنت غير مظلوم _ أي قوة تسكن أرواحهم في تلك اللحظة، فتصنعُ تصميماً يجوز في حقه المعجزة، أيكفي أن تكونَ فلسطينياً لفعل ذلك؟

حتـى السـماء ترفـض هـذه المقاربـة، فـأن تسـكن حُفـرة جدرانُهـا مـن الـتُراب، مُقَوّسـة السـقف، مُغلقـةٌ مـن جميـع الجهـات مـا دون فتحـة البـئر، وقـد تركـتَ ظهـرَ الأرض بمـا فيـه وراءك، لابـد أنـك مختلـف، مختلـفٌ حـدَّ الجنـون العاقـل، لا تسـل كيـف يكـون ذلـك، فمنـذ متى كان للعقـل وحـده الريـادة!، لا بـد مـن قليـل جنـونٍ حتـى يضبـط كل منهـما الآخـر، بالأمـس كان الحَجـر في وجـه البندقيـة جنونـاً، فانـبرى أصحـابُ العقـل والمنطـق لرفـض هذا الجنـون: إنهـا تهلكـة، «ولا تلقوا بأيديكـم إلى التهلكـة».

- وهل سكونُنا المُطلق ليس تهلكة أيضاً؟

- على الأقل تحافظون على حياتكم، ريثما تصبحون أقوياء.

- وهل القوة غير انتصار على الخوف، والجبُن المُغلّف بدعوى العقل؟

- ثـم كان أن انتـصر الجنـونُ العاقـلُ عـلى الجـبُن، وأصبـح المجانـينُ يحملـون السـلاح، فعـادت حسـاباتُ المختبئـين وراء العقـل: يطلـق الواحـد فيكـم رصاصة، فـيردُ الاحتـلال بقذيفة مدفعية، خسـارة تتلوها خسـارات.

- ثـم تتحـول الحكايـة إلى مـوت متحـرك بصيغـة المجانـين العقـلاء بأجسـادهم فيفجـرون الأوهـام التـي سـكنت عقـولَ الجبنـاء، قبـل أن يمزقـوا بقنابلهـم البشريـة أجسـاد الصهاينـة المحتلين، وهـل غير مجنون يفعـل ذلـك؟!.

- يقـول لسـانُ أحدهـم وهو يصعـد الحافلة التي أقلَّـت قراصنة العصر قبـل أن يقـرأ عليهـم آيات النسـف: كان العقل مُختبئـاً تحت الطربوش يومهـا، وفلسـطينُ تأكلهـا نيرانكـم، وقد أسـكتت عقلانيةُ قومـي بندقيةَ الفـلاح الـذي ابتاعهـا مـن مصـاغ زوجـه، فاكتسـبَ صفة مجنـون: ماذا سـتفعل البندقيـةُ في مواجهـةِ بريطانيـا والعصابـات الصهيونيـة المزودة بالمدافـع، عُـد إلى عقلـك، فقادة العـرب وملوكهم قد أخـذوا وعوداً من بريطانيـا، فـكان الطربـوش وما تحتـه أحمق، غبيّـاً، جباناً، خسيسـاً، أما الفـلاح، أتدرون مـاذا فعل؟!.

- فيرد الصهاينة في الحافلة قبل موتهم: لا ندري، لعله مات قهراً!!

- بل ازداد جنُوناً عاقلاً، وأورثني بندقية، فأنا أصغر أحفاده!

- لكننا لا نراك تحمل بندقية، بماذا استبدلت إرث جدك؟!

- بهذا الحزام الناسف ألستُ حفيد فلاحٍ مجنون وعاقل؟!

- صلـوا العشـاء ليلتهـا فـرادى، فليس مـن الحكمة إصـدار أي صوت في هـذا الليل، ونام إبراهيم وسـمارة على الفرشـتين اللتـين أحضُرهما عمادُ في بيتـه، فيـما بقـي عـلاء ومحمـد مسـتيقظين للحراسـة اسـتعداداً لأي طـارئ، وضربـات الصواريـخ التـي تـدك خـان يونـس والقـرارة وجميـع المنطقـة تبعـث بهزاتهـا الحقيقية للوصلـة دون أدنى تأثير على سـاكنيها حتـى الأصـوات كانـت خفيفـة، لكنهـا ثقيلـة على صـدور الرجـال التي أسـكنت الوطـن وأهـل الوطن فيها، وحسـبهُم مـن كل ذلـك، أنَّ الغزاةَ

لـن ينْفَـذوا إلى محمـد الصغـير وشـقيقه أسـماء قبـل أن يقُرئهـم «بابا» وصحبـه تراتيـل الموت....

الخميس – العاشر من تموز – «أول فجر تحت الأرض».

- إلهـي، بسـطت إليـك ضعفـي وليـس بينـي وبـين قدرتـك حائـل، أنـا مريـمُ التـي لا نبـي لهـا، فـلا هـززتُ جـذعَ نخلـةٍ ومـا تسـاقطت عـليَ الرُطَـبُ جنيًـا، أقـفُ عـلى بـاب غوثـك، أسـأل فيـك الرحمة عـلى قلبي، فهـل لي بحبيبـي مـرة أخـرى؟!.

- ثـم تبـكي أمـل ضارعـة إلى مولاهـا _عـز وجل_، سـاجدة بـين يديه في ظلمـة الليـل، وقـد جفاها النوم ليـس لأصوات الصواريـخ التي تدك كل شـبر من غزة وحسـب، لكنه الشـوق لسـمارة، الخوف من فكرة غيابه، لا تريـد أن تتعـود عـلى اختفـاء صوتـه أكثر مـن خمس سـاعات، كانت تجهـل وهـي ترسـم في مخيلتهـا فـارس الأحـلام، عواقـب ذلـك: أريـده مجاهـداً، يحمـل بـين جنباته حب الشـهادة، والدفاع عـن أرضه، فالذي لا يفعـل ذلـك، أخاف عـلى نفـسي وأولادي معه.

- تسـألها أمهـا وهـي تحـاول إقناعها بشـاب متعلـم وقد جـاء لخطبتها قبـل سـمارة: ألا تعلمـين أن أهل هـذه الأرض جميعهـم مرابطون حتى لـو لم يحمل جميعهم السـلاح؟!

- وأعلـم أيضـاً أن الجهـاد في فلسـطين فـرض عـين عـلى كل مسـلم ومسـلمة.

- أيتها المجنونة، هذا عريس لا يعوض، فلا تضيعيه من بين يديكِ.

- لا أريده، ولو كان مليونيراً، وسيكتب الله لي الخير.

- ألا ترين أنك تبالغين قليلاً....!.

- قاطعتها أمل: أمي الحبيبة، يا أعظم امرأة في العالم، امنحيني بعض الوقت، فلا أزال في مُقتبل العمر، حتمًا سيأتي الذي أريد، فإن الله لن يضيعني.

- ثم جاء سمارة الذي تبحث عنه أمل، لكن الذي كانت تجهل حَقيقته وانكشف لقلبها فيما بعد، صعوبة إخضاع القناعات إلى عالم التطبيِق وليس بالضرورة استمالتها، وهذا ما عصف بقلبها لحظة أن أخبرها سمارة وهو يستعد للانطلاق إلى مهمته الخاصة في القرارة: أستودعك الله يا حبيبتي.

- تلعثمت الكلمات في فمها قبل أن تسعفها بعض الأحرف: أين؟!.

- إلى حيث ينبغي أن أكون، ألم تدركي بعد أننا في حرب، نحن في غزة أيتها الجميلة.

- لم يفقد سمارة حِسَّ الدُعابة حتى في تلك اللحظات الحساسة وهو يهاتفهُا من جوال إبراهيم.

- ألا تنتظر حتى أراك؟!

- ألا يكفـي أن أراكِ في كل خطـوة أخطوهـا في سـبيل اللـه وأنـا في طريقـي للجهـاد؟

- أحمد أنا.....

- أنتِ أجمل امرأة، وأروع النساء.

- لكننـي لا أطيـقُ ألا أسـمع صوتـك، لقـد أصبحـتَ الجـزء الأهـم في حيـاتي.

- تنهـد سـمارة عميقـاً وهـو يقول بحنان: هـل هي دعـوة للتخلف عن الواجـب من أجـل الحبُ؟

الصحيـح أننـي لم أكـن أدرك صعوبـة فراقـك، لكن الأصعـب ألا أكون في المـكان الصحيـح للدفاع عنـكِ وعن أولادنا في المسـتقبل.

- ضحكـت أمـل عـلى اسـتحياء، ولا تـزال تضحـك في خلوتهـا مـا قبـل الفجـر وقت السـحر، وقـد تحول خوفها وشـوقها ودموعها، إلى طمأنينة لـدى تذكرهـا كلـمات سـمارة الأخـيرة ظهـر الأمـس، حيـث أيقظهـا من كل ذلـك، دعـوة والدتهـا لهـا لمسـاعدتها في تحضير وجبة السـحور على ضـوء الشـموع اسـتعداداً لصيـام يـوم جديـد في رمضان.

«البيض المقلي بزيت الزيتون!!»

وهناك حيث السحور له طعم آخر، كان علاء يهمس بحذر وهو يوقظ مقاتليه: وحدوا الله، السحور.. حيث كان إبراهيم في أقصى الوصلة ممدداً على طوله، وقبل أن ينتهي الحَيّز الذي يشغله جسدهُ الطويل، كان رأس سمارة يتشارك مع جزئه هذا ناحية القدمين لكسب المساحة المتاحة قدر الإمكان، فكل شبرٍ له أهميته، دوره، يقول سمارة وهو يرفعُ بندقيته الممددة على الأرض:

هل جهزتم البيض المقلي بزيت الزيتون، فرد عليه حَمُكة: للأسف الدجاجة لم تبض حتى الآن، أما إذا أردتَ بديلاً فسيكون عندك اللحظة؟!.

- أسرع به يا حَمُكة، لا أريد أن أستشهد ونفسي تطلب البيض..

- تحرك حَمُكة من مكانه، متوجهاً نحو البَئر: يا الله، فأسرعت أيدي وهمسات الثلاثة بإيقافه وعلاء ضاحكاً: إلى أين أيها المجنون، تريد كشفنا؟!

- أعـوذ باللـه، فقـط سـأحضر لـه بيض الحمام مـن أعلى، حتـى لا يلقى الله ونفسـه بالبيض.

- فاستنفر سمارة: لا إلاّ هذه.

- إذن عليـك القبـول بالضيافـة، واتـرك أحـلام بطنـك عندمـا تعـود للمائـدة...!!

- تَوقف حَمُكة وهو يغمز بكلامه لأمر يشترك الجميع بمعرفته.

- فأكمل إبراهيم: إلى هناك، حيث الوجه الحسن.

- فتنهـد سـمارة كعادتـه وهـو يأخـذ من علاء سـبع تمرات، سـتكون زاد جسـده طـوال فـترة صيامـه نهاراً إلى جانـب بعض الماء، حيث تسـلحت الزُمـرة بعـشر كيلـو غرام مـن التمر قد أحـضرت مع السـلاح إلى جانب بعـض التمـر الـذي اسـتطاعت المجموعـة إحضـاره معهـا، لصرامـة الإجـراءات الأمنيـة، وخطـورة الطريـق لم يكـن ممكناً حمـل طعام آخر عـلاوة عـلى أن اقتصـاد الغـذاء عـلى التمـر له أهـداف أخرى!

- وضـع الغـذاء الوحيـد هـذا في رفٍ تم حفره مُسـبقاً في جـدار الواصل قـرب البـئر، إلى جانبـه وعـاء أصفـر مـليء بمـاء الـشرب يتسـع لقرابـة عشريـن لـتراً، وتلـك عـدةُ المجاهدين الذين خرجـوا تطوعـاً للدفاع عن أهلهـم ووطنهم.

- وبعـد الانتهـاء مـن السـحور وتأديـة صلاة الفجـر بصـورة فردية، جاء

دور حَمُكَة الذي وضع يده على بطنه: أريد قضاء الحاجة قبل النوم!

- فرد عليه علاء: تعلم أن ذلك مستحيل!

- يا امي لا أستطيع الصبر إلى الصباح.

- بلى تستطيع، لن تخاطر بصعودك، والمصلون يعودون لمنازلهم بالقرب من الغرف.

- لقد قلتُ لك البارحة أن تخفف من الأكل فلم تستمع لي.

- قال سمارة وهو يضحك بهدوء على حَمُكَة.

- ثم أردف إبراهيم: لم يقاوم مشهد الدجاج والأرز بعد صيام يوم حارٍ وطويل

- يا إخوة فعلاً أنا بحاجة إلى ذلك وإلا انفجرت أمعائي.

- لم يكن ممكناً صعوده إلى غرفة الحمام، المكان الوحيد الذي ممكن تفريغ حصاد الأمعاء فيه على المستوى الثقيل، لأنها الغرفة الوحيدة المتاح فيها فعل ذلك، ولكنْ نهاراً دون الليل حتى لا يصدر أي صوت يلفت انتباه المارين، لذا توجب على حَمُكَة إسكاتَ أمعائه صاغراً حتى يبزغ فجرُ غزه ويضرب النهار شعاعه في القرارة.

- استلم إبراهيم وأحمد دورية الحراسة، بعد أن تركا مكانهما لعلاء ومحمد، ولولا وجود الساعات اليدوية لتعذر على المجموعة معرفة الزمن وما إن كانت الدنيا ليلاً أم نهاراً وفي كل الأوقات ليلٌ دامس، لا يمكن سماع شيء في الأعلى باستثناء ارتدادات الصواريخ التي لا يتوقف سقوطها على خان يونس وضواحيها، وفي ذات الوقت لا يمكن استخدام الأضواء الصغيرة دائماً إلا للضرورة من أجل الحفاظ عليها.

- وفي الأعلى كانت المعركة تزداد توسعاً، فلا المقاومة قادرة على إيقاف الهجمات الجوية والبحرية ونيران المدفعية وجميعها لا يتوقف للحظة واحدة، ولا العدو وكل أذرع دولته العسكرية الأمنية السياسية بقادر على إسكات الصواريخ التي تنطلق من كل شبر في القطاع دون أن يعيقها شيء، تقصف الطائرات الحربية آلاف الدونمات من الأراضي المزروعة بالأشجار والخضراوات عشرات المرات في اليوم.

وعندما تغادر أسراب الطائرات أجواء القطاع وتخرج المنصات من باطن الأرض الطيبة، وترسل صواريخها إلى أهدافها بنجاح، فيزداد العدو غضباً وإحباطاً، فزيادة النيران من جانبه تهدف أول ما تهدف إلى إضعاف قدرة المقاومة ودفعها إلى رفع الراية البيضاء تحت أي مُسمى تشاء، تهدئة، هدنة وغيرهما، وعندما يعجز عن تحقيق ذلك يبدأ برفع وتيرة الضغط على المقاتلين من خلال استهداف المدنيين في كل مكان، حتى يوجد معادلة لردع المقاومة ما دام يعجز عن ضرب المقاومين الذين تعلموا من الحروب السابقة ألا يكونوا، أهدافاً سهلة لطائرات العدو وقوات بحريته فاتخذوا من باطن الأرض مواقعهم

القتاليـة، وباتـت قيـادة المقاومـة التـي تسـعى إلى فـك الحصـار عـن شـعبها المفـروض منُـذ سـنوات، تدرك أن الزمـن لا يلعـب لصالح العدو الـذي تعـود عـلى الحـروب الخاطفـة، عـلاوة على أنهـا أصبحـت تمتلك الأدوات الصحيحـة التـي تجعلهـا تسـتند إلى جـدار صلـب، فالحاضنـة الشـعبية باتـت أكـثر ثقـة بالمقاومة التي تمنـع المحتل من التقدم لشـبر واحـد داخـل القطـاع، وتضرب كل مـكان في دولة الاحتلال، إن سـلاحها يمكـن الاعتـماد عليـه في تعطيـل الحيـاة لـدى العـدو وإدخـال سـكان دولتـه للملاجئ.

« أجمل الأمهات»

- وأشرقَ صباح القرارة وأعمدة الدخان تتصاعد في سماء القطاع بأسره بعد أن كانت ليلة صعبة على الناس، لم تنم فيها أعين الأطفال وعين عماد التي كانت تحرس إخوانه، تسأله والدته العجوز التي يعيش معها بعد وفاة والده: ألا تذهب كي ترتاح يا ولدي، لقد طلع النهار وأنت صاحٍ، وأمامك يوم من الصيام؟

- سأذهب بعد قليل إن شاء الله.

- يا ولدي قل لي ماذا تفعل وسأجلس مكانك، أفعلُ ما تفعل...

- ابتسم عماد وهو يلتفت إلى والدته: أوتفعلين ذلك يا أمي؟.

- أفعل، المهم أن تذهب للنوم كي ترتاح قليلاً.

- وهل يعرف المجاهد الراحة يا أمي، والله لن نرتاح إلاّ إذا تخلصنا من هذا المحتل.

- لكنك يا ولدي لست وحدك في القطاع، هناك أناس غيرك.

- ماذا، هل غيرتِ رأيكِ ولا تريدين مساعدتي؟!

- ابتسـمت وهـي تضع سـجادة الصلاة عـلى الأرض، لصـلاة ركعتين من الضحـى، وفجـأة وقـفَ أمامهـا تاركاً النافـذة قبل أن تنـوي للصلاة:

ما رأيكِ أن تدخُلي الجنة معي؟

- فرفعت يديها للسماء قائلة:يا رب، إن شاء الله يا ولدي.

- لكن أتعرفين كيف؟!

- أدركـت العجـوز الأمـر فـوراً: نحـن يـا ولـدي أنـاس مؤمنـون وليـس بالـضرورة مـا تفكـر بـه، فاللـه _عـز وجـل_ سيشـفقُ علينـا بعـد هـذا العـذاب، لأنـه رحيـم.

_ اسـمعي يـا والـدتي قـول النبـي – صلى الله عليـه وسـلم – «عينان لا تمسـها النـار، عـينٌ بكـت من خشـية اللـه، وعـين باتِت تحرس في سـبيل اللـه» ها مـا رأيك؟!

- يـا ولـدي، يـا حبيبـي، يـا روحـي، اقعـد طـول الليـل والنهـار عـلى النافـذة، راقـب الحـدود، أنـا ربيتك جيداً وأعـرف أنك تخـاف الله لكن ابـقَ بجانبـي في آخـر عمـري.

- انحنى عماد يُقبّلُ يديها: ادعي لي ولإخواني يا أمي، فبدعائك سننتصر إن شاء الله.

- كان عماد، أحد أعمدة المقاومة في المنطقة الحدودية، عينٌ من عيونها الثاقبة يمتلك خبرة كبيرة في جغرافية المنطقة وحدودها الشرقية، لذلك لم يكن سهلاً التنازل عنه من جانب سرية القرارة في كتائب القسام لصالح وحدة النخُبة التي أصرت على انضمامه إليها حتى يشرف بنفسه على الكمين المتقدم الذي وضعه في أرضه وقرب بيته، وتلك أمنية عماد التي أصر على تحقيقها ونجح، وهو يعلم أن واجب الوقت والمكان يحتم عليه الانضمام إلى وحدات النخُبة وهو الذي امتاز بالشراسة في القتال وصد التوغلات الصهيونية في المنطقة.

لكن التحدي الأكبر الذي نجح باجتيازه وجعله محل تقدير وإعجاب قيادة النخُبة له، عندما كلف بحَفر الوصلة أن تبرع من تلقاء نفسه بالأرض فاستطاع بحنكته وذكائه الأمني، بناء الغرف الثلاث وحفر النفق وتصريف التراب، دون أن يعلم أحد بذلك، خاصة أجهزة أمن العدو التي تنشط بوسائلها المختلفة على المنطقة السرية الحدودية وفيها العملاء الذين باعوا دينهم وشرفهم للعدو، وهم أخطر الأدوات في يد الاحتلال، لذلك يجري العمل في المهمات الخاصة تحديداً، بسرّية متناهية جداً.

ولم تغفل المقاومة بعد تحرير القطاع، عن إنشاء جهاز أمني خاص بها يحمي صفوفها من الاختراق ويقوم بكل المهام التي تقوم بها

شُعبةُ الاستخبارات العسكرية الخاصة بجيش الاحتلال المسماة أمان» تاركة مهمة حفظ الأمن الداخلي في القطاع لجهاز حكومي يحمل ذات الاسم «جهاز الأمن الداخلي» وهو الرديف لجهاز الشاباك الصهيوني، حيث تدور الحرب الخفية والشرسة بين أجهزة المقاومة والعدو.

«عيون المتلصصين!»

- مع شروق الشمس التي لا يمكن رؤيتها من النفق إلا النذر اليسير من ضوئها المنعكس على فتحة البئُر، كان المقاتلون الثلاثة بكامل جهوزيتهم، إلا واحداً عليه أن يتحلل من عبءٍ ثقيل لازمه ما بعد منتصف الليل، حيث صعد حَمُكة من النفق عبر البئر إلى الغرفة الأولى التي كانت محكمة الإغلاق ولا يدخلها إلاّ عماد الذي يمر بصورة طبيعية من الباب الذي لا يملك مفتاحه سواه، ليطعم الحمَام، أو يخرج الطعام للحيوانات وخاصة الحمار الذي يأكل التبن وكان طعامه خيراً على الشباب حيث صنع إبراهيم منه وسادة لإخوانه، ثم أسرع حَمُكة إلى الغرفة الثانية واتخذ وضعية الراحة التي يعجز أمام سلطتها جبابرةُ الأرض قبل فقرائها، وعندما ارتاحت أمعاؤه واستقر حاله، تفاجأ بعشرات العيون ترقبُهُ! مستغربةً من هذا المشهد الغريب، لدى انتهائه من أصعب المهمات وأعاد إبريق الماء البلاستيكي إلى الغرفة الأولى التي كانت مجهزة بالماء للاستنجاء والوضوء ونزل بهدوء إلى الوصلة، فاستقبله علاء بزغرودة على الصامت: مبروك شفيتم إن شاء الله.

- فـرد وهـو في هسـتيريا من الضحـك عُفيتم، ألا يريـد أحدكم أن يقضي حاجته؟!

- نريـد ولكـن لم تدعنـا الحاجـة بعـد، لم نكـن نعلـم أنك سـتكون بهذه السعادة؟

- يـا رجـال النخُبة، لقد انكشـفت عورتي لعشرات العيـون المتلصصة أي خُيبـة «لقـد انفضحـت يا رجالة كما يقـول المصريون».

- كان عـلاء وأحمـد وإبراهيـم يضحكـون وهـم مسـتغربون للوهلـة الأولى، وسرعـان مـا أدركـوا الأمـر حَمُكـة يسـتطرد: لم تنكشـف عـورتي لأحـد غـير أمـي والقاَبلـة التـي تلقفتنـي بيديهـا.

- ثـم أكمـل إبراهيـم: وكل أولاد الحارة عندما كنـت صغيراً وتلعب على باب البيت بـدون ملابس.

- لا لم أفعلهـا، فأنـا لاجئ درجـة ثانيـة أسـكنُ في حـيّ الأمـل، المهـم، سـجلوا هـذا التاريخ أن عورتي انكشـفت على الطيـور «واللي كان كان»

- فقـال سـمارة: يـا سـيدي كلنـا واردهـا، لكـن الأهـم، هـل نجحـت بإخفـاء الآثـار؟

- نعـم نعـم، حفـرت بالـتراب والرمـل، كـما تفعـل القطـط ودفنـت الجريمـة.

- فتدخل علاء: الحمام شاهدٌ على ذلك.

- كان المزاح والفكاهة، حاضرين باستمرار للترويح عن النفس كي تخرج من عسكريتها، فعلى الرغم من قناعة المجاهدين الأربعة أن طابع مهمتهم استشهادي في حال تقدم العدو بّراً، إلا أنهم يصرّون كمقاتلين محترفين في المقاومة تدربوا للتعامل مع كل الظروف القاسية والسهلة وبعضهم حارب مرات عدة، ألا تفارقهم الضحكة والابتسامة إلى جانب تعبدهم بالذكر، والتسبيح، والاستغفار، فهم رهبان الليلِ ورهبانيتهم هذه كانت أحد الأسباب الرئيسة لاختيارهم كمقاتلين في سبيل الله وكجنود في مشروع التحرير المتصاعد، لأنهم ثبتوا في امتحانات الأخلاق والسيرة الحسنة والالتزام الرباني، والتميز في العسكرية وكان اختيارهم لوحدة النخُبة، وخمستهم كانوا نخبة النخُبة التي وقع عليها الاختيار لتكون هنا.

- مرَّ عماد سريعاً على غرفة البئر ومدد سلكًا بسيطًا حتى يتمكن المجاهدون بالأسفل من سماع الأخبار ثم غادر وبيده فأس حتى يكون حضوره مبرراً، وفي المساء، فاجأهم إبراهيم: اسمحوا لي أيها الإخوة أن أكشف لكم عن أمرٍ سيسركم كثيراً.

- فقال سمارة بسرعة: هل سننفذ عملية خلف خطوط العدو؟

- لا، لا، فعلاء هو المخّول لإبلاغنا بذلك في اللحظة المناسبة، وعلى كل حال وجودنا هنا لا يقل أهمية عن الإنزال خلف خطوط العدو

وسترى ذلك بإذن الله ولكن سأجعلكم تسمعون الأخبار السارة أولاًبأول وبصورة مباشرة عبر هذا.

- أخرج الراديو الصغير وبدأ يربطه بالسلك الذي وضعه عماد، وكان بالأمس قد طلب منه فعل ذلك، تجمع أربعتهم أسفل البئر وقربوا رؤوسهم إلى الراديو الذي كان منخفض الصوت جداً، وبدا مذيع صوت الأقصى التي تعرضت للقصف مرات عدة هي وفضائيات المقاومة والتلفزيون الأرضي _ المرئية، بإذاعة الأخبار العاجلة: استشهاد ستة وعشرين مواطناً في هذا اليوم الأعنف منذ بدء العدوان على شعبنا، من بينهم تسعة كانوا من بين العشرات الذين يشاهدون إحدى مباريات كأس العالم في مقهى على الشاطئ بخان يونس.

- انفعل المجاهدون الأربعة وهم يستمعون لذلك، وكان التأثير واضحاً على حَمُكة، اللاعب في كرة الطائرة والطالب الجامعي الذي يدرس التربية الرياضية والذي صك على أسنانه: الله أكبر.

- ثم استمع للمذيع الذي واصل نشرته: في المقابل أعلنت المقاومة الفلسطينية وفي مقدمتها كتائب القسام عن قصف المدن المحتلة ومواقع العدو بمئتي صاروخ وقذيفة هاون، حيث اعترف العدو بأنها الهجمات الأعنف منذ بدء العدوان، وقد طالت الصواريخ تل أبيب واسدود وبئر السبع والنقب ومدينة القدس المحتلة وتحديداً منطقة بيت شيمش.

- لحظتها، شد علاء على كتف إبراهيم وهو يكبّر: الله أكبر، إخواننا ضربوا بيت شيمش، أتعلمون ماذا يعني هذا؟!

- قال سمارة: يعني أن صواريخنا، محلية الصنع، تصل إلى كل شبرٍ من أرضنا المحتلة وهذا ما عجزت عنه كل جيوش العالم العربي، وأننا نغيرُ استراتيجياً قواعد الاشتباك مع العدو.

- نعم نعم كل هذا وغيره صحيح، ولكن بيت شيمش المطلة على القدس هي المدينة الصغيرة التي خرج منها قبل أقل من شهر قتلة الطفل الشهيد محمد أبو خضير.

- فكبرَّ الثلاثةُ معاً، بينما علّق إبراهيم: ما تقوله صحيح، يجب أن يدكوها بالصواريخ صباح ومساء حتى يبكي الصهاينة دماً بعدما حرقوا الطفل.

- ثم تدخل سمارة مرة أخرى: يا إلهي، كيف القتلة المجرمون، أحرقوه حياً.

- قال حَمُكة متأثراً:بل أسقوه البنزين وهو حيّ ثم أشعلوا النيران فيه أي بشر هؤلاء؟!

- هؤلاء ليسوا بشراً أجاب إبراهيم، ثم عادوا للاستماع إلى ما تبقى من أخبار: في سياقِ التهديدات التي يطلقها العدو ضد المقاومة بالاجتياح البري حال عدم توقف الهجمات الصاروخية وعمليات

الإنـزال مـن خلـف خطوطـه التـي ينفذهـا رجـال النخُبـة مـن أبنـاء القسـام، فقـد صرّح أبـو عبيـدة الناطـق الرسـمي باسـم المقاومـة بمـا يـلي: نحـن مسـتعدون للعـدوان الـبري حـال حدوثـه، ونقـول للعـدو إن كل الـذي حـدث إلى هـذه اللحظـة مـن المقاومـة جـزء بسـيط مـن القـوة والوسـائل التـي بأيدينـا، وفي اللحظـة التي تقررون فيهـا الدخول الـبري، سـنكون بانتظاركـم، وسـنضربكم ونـأسر جنودكم لتحريـر أسرانا الأبطال.

- ومـا أن انتهـى المذيـع من أخباره وبـدأت الأغاني الجهاديـة، حتى قال الشـباب: إن شـاء اللـه، ورفع علاء يديـه للدعاء بعد أن أغلقـوا الراديو: اللهـم إنـا عبـادك أبناء عبـادك ناصيتنـا بيدك مـاض فينا حكمُـك، عدلٌ فينـا قُضـاؤك، نسـألك بـكل اسـم هـو لك سـميّتَ بـه نفسـك أو أنزلته في كتابـك أو علمتـه أحـداً مـن خلقـك، أو اسـتأثرت بـه في علـم الغيب عنـدك أن تجعـل القـرآن ربيـع قلوبنـا ونـور صدورنـا، وجـلاء أحزاننـا وذهـاب همومنـا، اللهـم ثـأراً لأهلنـا وعرضنا وأرضنـا، مكنا مـن أكتاف عدونـا وانصرنـا عليهـم وارزقنا الشـهادة وأنـت راض عنا.

- كان عـلاء يدعـو اللـه بصوتـه المنخفـض ودمعـه يترقـرقُ في عينيـه وإخوانـه يـرددون آمـين، آمـين.

- وفي بيـت عـماد كانـت عبـادة مـن نـوع آخـر، عندمـا جـاء إلى أمـه وقـد تهلـل وجههـا لـدى تجهيزها طعـام الإفطار بعـد صيام هـذا اليوم الـذي كان حـاراً مـن جميع الاتجاهات، سـخونة القصْف وشـدته وعدد

الشهداء الضخم وحرارة الجو اللاهبة، حيث أعدت أكثر الطبخات الفلسطينية شهرة [مقلوبة] مع جميع لوازمها، فحرب لا تمنع الحياة بما فيها من الاستمرار، نظرت إليه وهو يحدق حزينًا في الطعام: ما بك يا ولدي، لماذا لا تجلس، لم يتبق شيء لأذان المغرب؟.

- اسمعي يا حجة، لو قلت لك إن أربعة من خيرة أبناء المسلمين والإسلام تركوا أهلهم وأولادهم، يرابطون الآن تحت الأرض ليس عندهم لفك صيامهم بعد الله سوى بضع تمرات، ماذا كنت ستفعلين؟!

- حدقت فيه كثيراً والدموع تخط طريقها نزولاً على وجنتْيها، قبل أن تنطق باكيةً: أسرع يا ولدي، احمل جميع الأكل، ____!

- وأخي وأنت ____!

- اسكت ولا تجعل أحداً يراك كنتَ تريد أن نأكل وإخوانك جائعون؟! اركض يا ولدي واجعلهم يدعون لنا فدعوة المجاهدين مُستجابة ولا تقلق علينا سنذهب إلى بيت أخيك

«تموز والشيطان»

الجمعة الحادي عشر من تموز، ثالث يوم في الكمين..

- عرق الفلاحين تكتبه الأرض شعراً، فالأرض تصبحُ شاعرةً عندما يختلطُ بها عرقُ الساري مع الندى حبُاً يبذر فيها كل شيء من فؤاده، أما عرقُ المقاوم فحكاية تكتبها السماءُ في صحائفها، نجومها، كواكبها، بعد أن خبأت الأرضُ وجهها استحياءً من فدائي يزرعها دماً دون مقابل، ويُقبلها سجوداً ويسكنهُا عندما تغادرُها الخلائق.

- كان المجاهدون الأربعة، الموزعون على طول النفق، يغرقون بعرقهم، تسيل خيوط العرق على وجوههم وأجسادهم، والرطوبة عدو يقاتلهم في الأسفل، فتموز قد أعلن تحالفه مع الشيطان، وبدأ المشهد أكثر تعقيداً مع قلة الأكسجين.

- يتقدم إبراهيم من أقصى النفق متجهًا أسفل البئر بعد أربع ساعات من القتال من العرق والرطوبة وانحسار التنفس حتى يجُدَد نشاطه، فيخاطبه علاء الذي أضاء مصباحه فبدأ سمارة ممدداً

على ظهره في الناحية المعاكسة، حَمُكة يجلس متربعاً بعد أن أرهقه التمدد على جنبه: ماذا تقول يا أبا محمد، هل سيدخلون اليوم؟!

- الله أعلم لا أستطيع الجزم أنهم سيدخلون أصلاً لعلهم يستخدمون ذلك لإرهابنا كما فعلوا في الحرب السابقة قبل عامين وفي النهاية لم يدخلوا.

- أعتقد بأن هذه الحرب ستكون مختلفة عن سابقاتها، فأنا أشم رائحتهم.

- يتدخل سمارة بالقول: المسألة حسابية واحد زائد واحد يساوي اثنين.

- فيعلق علاء: وماذا تقول الرياضيات يا أستاذنا الفاضل؟!

- كان الجميع يعلم أن سمارة حاصل على شهادة البكالوريوس في الرياضيات وغالباً ما يستخدم الأرقام في تشبيهاته ممزوجة بروح الدعابة التي يتصف بها: المعادلة واضحة، فالمعركة مع العدو طردية، عنفه المتصاعد نواجهه بمقاومة فاعلة تتناسب مع ذلك.

- و ما الجديد فيما تقول؟! شارك حَمُكة في النقاش.

- صحيح أن إدخال خمسة ملايين من سكان دولة الاحتلال الملاجئ بفعل الصواريخ التي زادت فعاليتها ومداها، قد أحدث نقلة نوعية في توازن الرعب وشيئاً ما من توازن الردع، إلا أن الأمر الأهم

والأخطر وما لم يتوقعه صانع القرار الصهيوني عندما دخل مقاتلون من خلف خطوطه بحراً ومن تحت أسرته عبر الأنفاق.

- يؤكد علاء بالقول: ما تقوله صحيح، يدعوهم إلى رفع الوتيرة والتفكير بحل مشكلة الأنفاق الهجومية التي يتوقعون أن يتم تفعيلها بصورة أكبر.

- لكن – يقول إبراهيم –العدو له حسابات الربح والخسارة، فهو يدرك أن العودة لغزة لها ثمنها الباهظ، فغزة ليست تلك التي تركها صاغراً عام ألفين وخمسة.

- ثم يعود سمارة للإمساك بالنقاش الذي كان ينتظره الجميع لكسر الصمت، ونسيان الحر: عدونا لا تحكمه بالضرورة توصيات أجهزة أمنه وتقديرات جيشه لحجم الخسائر المتوقعة، بل الفاتورة الانتخابية التي يمكن أن يدفعها رئيس وزرائه وشركائه في الإئتلاف الحكومي في أقرب انتخابات، حال إخفاقه في الإجابة عن أهم سؤال: لماذا لم تعالج الصواريخ والأنفاق وتقضي على الإرهاب كما وعدت في دعايتك الانتخابية عندما كنت في المعارضة؟!

- يشارك حمكة في النقاش: صحيح أنني لا أتُابع الأخبار السياسية كثيراً، ولكنني سمعت أن وزراء في حكومة العدو يطالبون بالاجتياح البري.

- يا سيدي أهلاً وسهلاً، دعونا نراهم على الأرض – قال علاء، وكأنه

يرفع من همم رجاله، بينما كان إبراهيم الذي وضع الراديو على أذنه يضحك، فعاجله سمارة: أضحك الله سِنَكَ وهل أسر الشباب جنديًا؟!

- لا لا ولكن إن شاء الله قريباً، إنما سمعت ترجمة لسؤال وجههُ صحفي صهيوني لقائد جهاز الشباك الأسبق واسمه (دخمر اسعمر)، لا أدري، لعنه الله.

- فصححه علاء: المجرم (آفي دختر)، ماذا قال هذا المأفون؟!

- سأله الصحفي: متى ستركع حماس؟! فأجاب حماس لا تركع إلا في الصلاة.

- كان نهار النفق رتيباً، ساكناً، يكرر نفسه كل يوم تماماً كالليل، وينبغي أن يكون هكذا، كي تسكت عين العدو عن المكان، حتى عماد الذي سارع في اليوم الثاني للكمين بإحضار المقلوبة لإخوانه، وهو يدرك أنه يخالف التعليمات، توقف عن الحضور اليومي بعد أن تحدث معه علاء: _جزاك الله خيراً_ يا عماد لا حاجة لكل هذا ويكفي إلى هنا.

- لكنني لا أستطيع، فكل الاحتياطات الأمنية لم تقنعني بأكل الطعام وأنتم تأكلون التمر هنا.

- لن نختبر إخلاصك ولكن محظور علينا المخاطرة بتعريض الكمين

للخطـر، ولـك أجـر النيـة إن شـاء الله، حافـظ على نفسـك ولا تغير من عاداتـك اليوميـة إلا مـا تفرضـه ظـروف الحرب كبقيـة الناس.

- غـادر عـماد والغصَّـةُ تملأُ صدره، ولا يـدري كيف سـيقنع والدته التي باتـت شريكـة في السر دونـاً عن أشـقائه، بإيقاف الخطـة الغذائية التي أعدهـا لإطعـام المجاهديـن، مسـتخدمين الإمكانيـات المتوفـرة لديهـما كمزارعـين يعتمـدون عـلى اقتصـاد المقاومـة فيزرعـون الخضراوات الضروريـة ويربـون الماشـية مسـتفيدين مـن حليبهـا كالألبـان والأجبان وكل المشـتقات، إضافـة إلى تربيـة الدجـاج والأرانـب وبعـض الأنـواع الأخـرى مـن الطيـور وتغضب أمـه: يا ولدي عيب وحرام لـو كان والدك رحمـه اللـه حيّـاً، لمـا قبِـل بذلـك في حـق الضيـوف العاديـين فكيف إذا كانـوا مجاهديـن؟! يبـدو أنـك نسـيت أننا بـدو، أهـل الكرم؟!

- معـاذ اللـه يـا أمي، لكن الشـباب يخشـون أن يكشـفني أولاد الحرام، ونحـن لا نـدري مـن أيـن يأتي الخطـر، فتوكلي عـلى الله ولنا أجـر النية.

- لم تقتنـع الحاجـة بالـكلام ولكنهـا تثـق بعـماد الـذي يوصـل الليـل بالنهـار لخدمـة المقاومـة وعـلى بعـد عشريـن مـتراً منهـا تحـت الأرض، كانـت النخبـةُ تتكيّـف تدريجيـاً مـع كل شيء لا سـقفَ لأي أمـرٍ لديهـا «الـكل مرتبـط بتقـدم العدو برّاً، فـلا حدود زمنيةٍ تؤرقهـم، ولا جغرافيا المـكان تشـكل ضاغطـاً عـلى ثباتهـم، قلوبهـم تعمـل كالمعتـاد، تنبـض بأحبتهـم، بشـوق إلى دفء وجوههـم ولمسـات حنانهم، لكن شـوقاً من نـوع آخـر يَمتثِـلُ أمامهـم يطغى عـلى ما سـواه، تحركه الـروح، ويدفعه

الإيمـان: متـى سـندوس بأحذيتنـا عـلى رؤوس نخبتهم؟!

- يقـول سـمارة وهـو يتحسـس بندقيته الكلاشـنكوف الخاصـة به، فيرد علاء الـذي كان يقـرأ القـرآن أسـفل البـئر مـن مصحفـه الصغـير: حتـى يـأذن اللـه وتدفعهـم حماقتُهـم إلى فعـل مـا خططنـا له منذ سـنوات.

- أتعلمـون أيهـا الأحبـة أنـا أحلـم بتلـك اللحظـة منـذ بعيـد، ولـولا خشـيتي عـلى النـاس مـن عواقـب الاجتيـاح الـبري، لدعـوتُ اللـه عـز وجـل أن يدخلـوا.

- لحظتهـا، انفعـل حَمُكة: أقسـم أنني كذلك أريـد أن أرى هذه القوات التـي تقتحـم بيوت أهلنـا في الضفة الغربية، وتطارد الفتية في الشـوارع وتدّعـي أنهـا أرفـع الوحـدات الخاصـة في جيـش العـدو، جنـدي النخُبة يطـارد الرايـات الخـضراء في الجامعات ويسـتقوي على رمـاة الحجارة في القـدس!! لقـد أسـاؤوا لقوات النخُبـة في العالم. قالها حَمُكة مسـتهزئاً.

- فيعلق إبراهيم: أول الخسارة الاستهانة بالعدو، يا جندي النخُبة!

- أنـا لا أسـتهين، إنمـا تلك حقيقـة، إن جيش العـدو ووحداته الخاصة لم يخـض معركـة حقيقيَـة وجهـاً لوجـه منذ فـترة طويلة، ويكتفـي بعرض عضلاتـه عـلى شاشـات التلفزة في مواضع لا تسـتقيم مـع خصائصه.

- صحيـح، ولكـن هذا لا ينفي عنه الحرافية القتالية والاسـتعداد لخوض المعـارك، ربمـا يتفوق علينا في ذلك مـن النواحي المادية الصرفة.

- أكيـد – يشـارك عـلاء في إبـداء رأيـه: إنهـم يفتقـرون إلى أهـم عنـصر نمتلكـه نحـن، رغـم التفـاوت الكبـير بـين إمكاناتنـا وإمكاناتـه وهـي الـروح والإرادة.

- سـبحان اللـه، يدفعـه الخـوف عـلى مسـتقبل احتـلال أرضنـا، لقتالنـا وسـفك دم شـعبنا وفي هـذا ضعـف لا يُقارن مـع اسـتماتتنا لنزاله حتى لـو كلّـف ذلـك نيـل الشـهادة، فنحـنُ نجاهـد للتحريـر وهـو يقاتـل لوقـف ذلـك، قالها سـمارة الـذي أردف بالقول لـدى تذكره أمـراً: أسرع يـا عـلاء، افتـح لنـا على نـشرة الأخبـار المسـائية.

- ثـم اقـترب الأربعـة إلى بعضهـم، وبـدأت أخبـار المقاومـة: تواصـل العـدوان الصهيـوني عـلى القطـاع وسـط تزايـد التهديـدات بالدخـول الـبري، حيـث بـدأت الخلافات تدب في أوسـاط حكومة العـدو المصغرة التـي تنقسـمُ عـلى نفسـها بشـأن توسـيع الحـرب عـلى غـزة، في الوقت الـذي تسـتمر فيـه المقاومة بدك مـدن العدو ومواقعـه بالصواريخ على مسـمع ومـرأى القُبّـةِ الحديديـة التي تثبت فشـلها يوماً بعـد يوم، فيما أكـدت مصـادر العـدو أنـه أسـقط عـلى القطاع منـذ بدء العـدوان نحو أربعمائـة طـن مـن المتفجرات.

- اللـه أكـبر، الجبنـاء أطلقهـا سـمارة مُغتاظـاً، فطالبـوه بالاسـتماع: وقد شـهد شـمال فلسـطين سـقوط صاروخـيّ كاتيوشـا عـلى كريات اشـمونا أطلقـا مـن جنـوب لبنـان، حيث اعتقـل الأمـن اللبناني رجلًا كبير السـن أصيـب بحـروق أثنـاء إطلاقـه لصاروخـين وتبـين أنـه الشـيخ حسـين

عطوى من منطقة العرقوب يحمل شهادة الدكتوراه العلمية وعضو في الجماعة الإسلامية.

- أقسم بالله العظيم بأننا سننتصر – قالها علاء- ما دام في أمتنا مثل هؤلاء الرجال، فوالله إنه حُجَّة على كل القاعدين، رجل كبير في السن، لم تُقعده الشهادات العليا عن دم إخوانه في العقيدة والإنسانية.

- تُرى كم مثله في الأمة؟ يسأل إبراهيم وأربعتهم انفعل لدى سماع الخبر.

- فيجيبه سمارة: هم كثيرون ولكن السؤال الأهم، كم منهم يقوم بما قام به ويعذُر إلى الله؟!

- فيساهم حَمُكة في الرأي: أنا لا أفهم كيف يستطيع حرٌّ يعيش في الأردن ومصر وسوريا ويرى المذابح عندنا ولا يمسك حتى مسدس وينزل على الحدود؟!

- فيرد عليه إبراهيم: لقد سمعتُ من إخواننا أنهم فعلوها من الأردن في الانتفاضة الأولى.

- أنا لا أدري هل بيت المقدس للفلسطينيين وحدهم؟ أحيانًا أفقدُ الأملَ بالناس.

- هنا يطلب علاء منهم الإنصات لسماع إذاعة أخرى يتحدث

فيها شخص عنهم: عناصر القسام يختبئون في المدارس والمساجد والمستشفيات وبين المدنيين والطائرات الإسرائيلية تقتل أبناء شعبنا!!

- هذا الرجل من شعبنا!! يسال حَمُكة؟!

- هو ناطق رسمي لجهة كبيرة لشعبنا – أجاب علاء.

- بينما يحوقل سمارة: لا حول ولا قوة إلا بالله، عدونا ينسى جميع خلافاته لحظة الحرب ومواجهة أي عدو خارجي، فتتحد المعارضة مع الحكومة، أما هؤلاء.

- يقاطعه إبراهيم: هم الرويبضة، دعهم فإن الله لا يصلح عمل المفسدين، وشعبنا يرى ويسمع، ويكفي أن الله _عز وجل_ يرانا.

السبت الثاني عشر من تموز ـــــ رابع يوم في الكمين

«مقاومة غزة ___ تصنع خيال الأطفال»

رمضان عاصف، وباكٍ، سكنت فيه ابتسامةُ الأطفال وهم يتراكضون نحو المائدة، وصوتُ المدفع يقرعُ أبواب بطونهم، وأقدامُ النسوةِ قعدت عن مسير الليل في الأسواق، حيث تطيب هناك الحكايات الجميلة، وبكت المساجد روّادها، رهبانها، والشيخ أعجزته القذائف عن المحراب، لكن رجال رمضان!!لم تتوقف فيهم عبادةُ القتال، ومحرابهم غدا مربَضَ الصاروخ، ينطلقُ متوضئاً ويحطُ ساجداً هناك، يسحقُ الفاجرين ويقرأُ على بيت المقدس السلام.

- لكن الحياةَ، أبداً، لا يمكن إيقافها في غزة، كسرةُ خُبزٍ، تصنعُ الفلسطينيةُ منها مائدةَ الإفطار، تتحايل على كل شيء، تبدع فنَ الحياة.

- تجلس زوجُ إبراهيم على مائدةَ الإفطار وعلى يمينها محمد ويسارها أسماء، لا تطلب عيونهم البريئةُ الطعامَ بقدر ما تطلب الأمان، ولم تسكت الصواريخُ عن خان يونس منذ بدء العدوان فقد تبدلت

فِطـرَةُ الأطفـال، ولم تعـد أيديهـم تتحـرك لا إراديـاً نحو الطعـام، فهناك خـارج الغرفـة وحـشٌ يفـترسُ الأطفـال يـأتي مـن كبـد السـماء، يطلقون عليـه «صـاروخ»، يحثهـم جدهـم «أبـو إبراهيـم»: كلـوا يـا جـدو هيـا، حتـى تصبحـوا أقوياء.

- تنظـر إليهـم الجدة، تـرى في وجوههـم إبراهيم، يعزيها المشـهد قليلاً وسرعـان مـا يخفـقُ قلبها، فيرتـد وقع الخفقـان في صدر المرأة الجالسـة هنـاك وقـد فضحتهـا دمـوع فـراق الحبيـب، والجميـع يسـعى جاهـداً إلى التخفيـف عـن بعضهـم البعـض: كلي يا حبيبتـي ولا تجعلي الأطفال يرونـكِ ضعيفة.

- ومـن لـه شـهية للطعـام ونحن لا ندري شـيئاً عن إبراهيـم منذ أربعة أيام؟!

- فيتدخل أبو إبراهيم: لن يصيبه إلا ما كتبه الله عليه.

- والنعم بالله يا عمي، لكن على الأقل نطمئن على أخباره.

- ماما، ماما، بابا مع المجاهدين، هو أخبرني بذلك.

- فقال الجد وهو يبتسم: متى أخبرك بذلك؟

- البارحة في الليل عندما كنِتُ مع الشباب نطلق الصواريخ.

- ضحك الجميع: والله العظيم، حتى أنه أحضر لي حَبة بوظة.

- وماذا قال لك أيضاً: طلب مني أن أضرب صاروخين وأرجع إلى البيت قبل أن يدخل الليل.

- لكن يا جدو، المجاهدون لا يخافون من الليل!

- أنا لا أخاف من الليل، ولكن يجب أن أكونَ مع ماما وأختي أسماء، هكذا طلب مني بابا.

- تتدخل أمه: ولماذا تيقظني بالليل عندما تريد الذهاب لقضاء حاجتك في الحمام؟!

- تصاعدت ضحكاتهم ومقاومة غزة تصنع من البطولة خيال الأطفال.

- و فجأة يصرخ أحد الجيران من نافذة بيته المقابلة لبيت «أبو إبراهيم»: يا أبو إبراهيم، افتح التلفزيون.

- ولأجزاء من الثانية، ظن أهل البيت أن الرجل يتحدث في عالم آخر، فقد نسي كثير من الناس بفعل انقطاع الكهرباء المتواصل أن هناك، اختراعاً، اسمه التلفاز، فأحيانًا تأتي الكهرباء بساعاتها المحدودة، غير أن الصواريخ التي تضرب الشوارع والمنازل، أيضًا تعطل شبكة الكهرباء، ورغم بسالة عمال الكهرباء في البلدية، ومخاطرتهم وقت الحرب، إلا أن الضرر الذي تحدثه الصواريخ لا يمكن إصلاحه بسهولة.

- كان المشهد مؤلماً، فظيعاً، لم يخضع للتشفير، تختلط فيه كسراتُ

الخبـز مـع الدمـاء، أُمّ لم يبـق منهـا شيء غـير صـدر ملتصـق فيـه مـا تبقـى مـن دمـاغ طفلهـا، أيـدٍ وأرجـل تناثـرت بـين الأنقـاض: أغلقـي عيـون الأطفـال صرخـت الجـدة أم إبراهيـم: وهـي تضع كلتـي يديهـا عـلى وجهها، بينـما يجهـش الجميع بالبـكاء، صاروخ يسـتهدف السـلم العالمـي، يقتل الإنسـانية ينسـف العدالة، يحرق مواثيـق الأمم، ويعلن: أنـا ربكـم الأعلى.

- لم يتمالـك المذيـعُ نفسـه: لم يكونوا مقاتلين، جُرمهـم الوحيد أنهم لبوا دعـوة أخيهـم الأكـبر لتناول طعام الإفطـار، ثمانية عشر حُلـماً من عائلة البطـش، حرقهـم الظلـم العالمـي، لم يكن الصـاروخ ذكياً يـا أمريكا!! ثم توقفـت الكلـمات ما بين بكائـه والدموع.

- كانـت العائلـة تظـن بـأن حّي التفاح في غزة آمن نسـبياً، لـذا تجمعوا لفـك صيامهـم في بيـت شـقيقهم الأكبر، غـير أن صاروخ الــF16 الموجه بأحـدث التقنيـات العالميـة!، أراد لهـذه الوليمـة أن تكـون مليئـة بالدمـاء، فـكل البـشر في قارة غزة، إرهابيون، النسـاء والأطفـال تحديداً، ولم يعـد بالإمـكان إسـكات المقاومـة تقليديـاً، يجـب أن تسـيل الدمـاء مـن الخـاصرة الرخـوة، ونقطـة الضعـف لـدى السياسـيين مـا تسـميهم الإنسـانية بالمدنيـين، وتراهـم طائرات المـوت إرهابيين إنها إذاً، سـيرتهُم الأولى في ديـر ياسـين، «اذبـح الأطفـال والنسـاء أولاً وانـشر الخـبرَ بـين النـاس ثـم انتظـر النتيجة»

«مساءُ الخير تل –الربيع»

- كانـت النخبـة في الكمـين، لتوهـا قـد انتهـت من تنـاول حبـات التمر السـبع ومقـدار المـاء المخصـص لكل مقاتل، حيث شـاركهم عـماد الذي اختلـق الأعـذار لعـدم الإفطـار في البيـت وجـاء إليهـم بكثير مـن أخبار المواجهـة التـي فاتتهـم، غير أن مجـزرة عائلة البطـش، أوجعتهم، أبكت قلوبهـم: المجرمـون يسـتهدفون المدنيين عمـداً، قال عـماد متأثراً.

- فـرد عليـه سـمارة: لعبتهـم مكشـوفة، يحاولـون الضغـط علينـا حتـى نسـتجدي وقـف إطـلاق النـار، «حُلـم إبليـس في الجنـة».

- لكـن إخواننـا في غرفـة العمليـات أخبرونـا أن العـدو توجـه لأطـراف عديـدة لتدخـل مـن أجـل إقناعنـا بقبـول الهدنـة؟! علـق إبراهيـم، فتحـدث عـلاء وكان الوحيـد مـن بينهـم الـذي درس الحـرب أكاديمياً في الكليـة العسـكرية في غـزة:

العـدو خائـف مـما تهدد بـه المقاومـة، حرب الاسـتنزاف، وكلـما طالت أيـام الحـرب وحافظـت المقاومـة عـلى اسـتمراريتها في القصـف، كلـما

فقـد العدو السـيطرة وسـجل على نفسـه النقـاط التي سـيدفعها صاغراً في الهدنـة القادمة.

- قال سمارة: لقد استخدم ذلك في الحروب السابقة وفشل.

- لكنـه في هـذه المـرة سـيطور اسـتراتيجية الـردع لديـه بصـوره كبـيرة وبمـا يسـميه الردع الشـامل عبر قصـف أهداف عسـكرية ومدنية في آن واحـد، والضغـط عـلى المدنيين من أجـل الضغط على القيادة السياسـية لوقـف المقاومـة أو مـا يـرى فيه بدايـة حرب الاسـتنزاف.

- ونحـن، هـل يكفـي مـا نفعل حتى الآن، سـأل حَمُكة مغتاظاً، فأجابه عـلاء: للوهلـة الأولى مـع حجـم الدمار الـذي تحدثه صواريـخ الاحتلال وعـدد الشـهداء الضخـم بـين المدنيـين في أقـل مـن أسـبوع واحـد عـلى العـدوان، تبـدو المعادلـةُ خـاسرة مـن طرفنـا، لكـن اسـتراتيجيا الوضـع مختلـف، فالمعركـة يخوضهـا المحتـل على أرضـه وليـس في أرض الخصم كـما تعـود في حروبـه السـابقة، كـما أنه تعـود عـلى الحـروب الخاطفة والمفاجئـة وقـد فقـد ذلـك أيضـاً، فنحـن هـذه المـرة، مـن بـدأ بعنـصر المفاجـأة التـي أربكـت جبهتـه الداخليـة، عـلى الرغم من أنـه هو الذي بـدأ العـدوان ببعـض عمليـات القصـف، وأصبحـت المدن المحتلـة التي كان يعتبرهـا حِصنَـهُ المنيـع هدفـاً لصواريخنـا، وأهـم شيء في ذلـك، إدخـال خمسـة ملايـين صهيـوني للملاجئ.

- كان الجميـع يُنصـتُ إلى مـا يقولـه عـلاء مـا بين الهمس وأكثر، فسـأله

عـماد: هـل ترى بـأن العدو سـيخضع لتغيـير قواعد الاشـتباك هذه؟!

- لقـد فـات الأوان عـلى ذلـك منـذ حـرب حجـارة السـجيل عـام ألفـين واثنـي عـشر، وخضـع صاغراً لمعادلـة أنَّ حركة تحـرر وطني تجلس على صـدره وعليـه القبول بذلـك ولكن!!

- المعركـة مسـتمرة – أكمـل إبراهيـم، فاسـتطرد عـلاء: بالضبـط، حتـى لـو كان يريـد إنهاءهـا عنـد هـذا الحـد، لا ينبغـي لنـا فعـل ذلـك حتى نرفـع الحصـار عـن أهلنـا في القطـاع، ونعطـي درسـاً للأجيـال أنه يمكن الانتصـار عـلى العـدو، وهـذا يعنـي توسـيع دائـرة المواجهة مـن جانب العـدو وصـولاً للاجتيـاح الـبري الـذي امتنـع عنـه في الحرب السـابقة.

- يـا رجـل، دعهـم يدخلـون، سـنحفر قبورهـم هنـا، كانـت حماسـة سـمارة تلهـب مشـاعر عـماد الـذي كان يجلـس بملاصقتـه: سـنحفرها معـاً إن شـاء اللـه.

- وفي تلـك اللحظـة، أضـاء حَمُكـة مصباحـه، تزامنـاً مـع انزعـاج لفظي أخرجـه مـن فمـه: مـا هـذا، ألا ترتاحـين يـا صديقتي؟!

فضحـك المقاتلـون عـلى حـواره مـع الحـشرات الزاحفـة التـي كانـت تسـكن الأرض وتجـاور النخُبـة، فلـم تكـن بالمؤذيـة بقـدر مـا كانـت مزعجـة، عندمـا تلتصـقُ بالجسـد الرطـب، الـذي كان يقطر عَرقـاً، وقد تعـود الرجـال عليهـا وقـرروا أن يتجاهلوهـا رغـم وجودهـا، عـلى وقـع الحـوار الـذي أجـراه حَمُكـة، كان عـلاء يسـتقبلُ مكالمـة روتينيـة مـن

غرفة العمليات، انتهت بسرعة على غير العادة، حيث أسرع علاء إلى فتح الراديو وهو يردد: يا رب يا رب!!

- فاستنتج الأربعة أن القسام فعل شيئاً: بشّر، ما الذي يحدث؟!

- إخواننا سيضربون تل أبيب _أقيمت مطلع العشرينيات من القرن العشرين على أيدي إحدى الهجرات الصهيونية، على أرض عربية اسمها تل الربيع _ الساعة التاسعة مساءً!

- الله أكبر، هل أعلنوا ذلك صراحة؟ سأل سمارة.

- ليس هذا فحسب، وحددوا نوع الصواريخ « جعبري80 «، ودعوا سكان تل أبيب وضواحيها الجنوبية إلى دخول الملاجئ.

- ثم صرخ حَمُكة وهو يضيء ساعته: أي بعد عشر دقائق من الآن، الله أكبر ولله الحمد.

- عندها صمت الجميع، سكنت ألسنتُهم ولم تصمت قلوبهم، أصبح النفق الصغير صومعة تزدحم بالرهبان، يُقسمون على ربهم أن يُسدد رمي إخوانهم، تبكي عينا علاء فيغرق وجهه بالدموع، تتحشرج في صدره الكلمات، يرى كل شيء في تلك اللحظة، شعبه الذي شردوه قبل أكثر من ستين عاماً، نساءٌ حملن الوسائد بدلاً من أطفالهن وقذائف الإجرام تحرف التاريخ والجغرافيا، ضياعٌ، بيارات وأحلام وشواطئ، كلها أصبحت خيمة لاجئ: يا رب، أنت العدل، فاجعل

صواريخنا من مقتضيات عدلك، ثأراً لطفلة فقدت حتى اسمها بعد أن انتحل الغاصبون صفة الألوهية فمزقت صواريخهم أجساد عائلتها، يا رب اجعلها مقلاع داوود وعصا موسى، نحنُ الفقراء تحت سمائك، أغلقَ العالمُ عينيه على ذبحنا، سالت دماؤنا مِهراقة، وساسة الكون يرقصون طرباً على وقع صُراخنا، ماتت إنسانيتهم عند بابنا، فاثأر لبسطائك ولا تخذلهم يا رب.

- وهناك فوق الأرض، كانت فلسطين تتضح أكثر، بعضها الغريب القادم من اجتماع المعمورة يختبئُ في الملاجئ ولم تعد تلك الأرض التي وعدوه بها عندما كان وراء قطيعه في أثيوبيا ويرتاد الحانة في موسكو، لقد تبخر السمن والعسل وأصبح بضع أمتار مُقرفة تحت الأرض، كُتبَ بالعربية على جدارٍ قديم بجوارها، نسيَ القراصنة إزالته من هناك: عيون قارة ترحبِ بكم.

وذلك أسوأ أمر يمكن أن يتخيله السارقُ عندما تظهر له ضحيتهُ لحظة الإمساك به، وتلك عيون قارة التي استبدلوا اسمها، فأصبحت «ريشون ليتسيون» بعد أن شردوا أهلها الأصليين، أما بعض فلسطين الآخر، فكان يعتلي الأسطح، في حيفا والقدس وجنين وأم الفحم، غزة ونابلس، انتفضت المظالم، صعدت إلى حيث السماء لا يحجبها عن عين الفقراء شيء، ترفع عجوز من مخيم الدهيشة يديها إلى خالقها بعد أصرّت على أولادها أن يحملوها إلى حيث تريد أن ترى عودتها مع الصاروخ، وتطلب من السماء: يا غارَةَ اللهِ جدّي السيرَ مُسرعةً يا غارَةَ اللهِ.

- وطفلٌ في حيفا يسأل جده الذي طردوه من صفد واحتلوا منزله فأصبحَ لاجئاً في بلده: هل سنعود يا جدي إلى صفد بعد أن يستسلم اليهود؟. ينظر العجوز إلى حفيده ثم يسأله: وما الذي سيجعل اليهود يستسلمون؟!

- يا جدي اليهود الذين يسكنون بالقرب منا دخلوا الملاجئ ونحن غير خائفين على سطح الدار، هم خائفون ونحن ننتظر صواريخنا.

- يبكي العجوزُ، صفارات الإنذار تدوي في كل مكان، وأصوات التكبير تضج بها سماءُ فلسطين، تصاحب الصواريخ العشرة التي انطلقت بموعدها، تدكُ أهدافها بدقة والعالم يضرب التحية للمقاومة، بعد أن عجزت غاراتُ العدو المسعورة عن إيقاف هذه اللحظة التاريخية التي لم يعد فيها الاحتلالُ وحده الذي يأمرُ الفلسطيني بمغادرة منزله حتى يقصفه، أو يفرض عليه حظر التجوال والحياة.

- لم يكن النفقُ بعيداً عن النصر المعنوي الذي تحققَ بنجاح الضربة الصاروخية.

- يقول عماد: لو كان علاء يسمح لطلبت من أُمي أن تصنعَ لنا الحلويات.

- يا شيخ عماد، الحلوان وصل عندما نجح إخواننا بعد توفيق الله في الالتزام بالموعد.

- يقول سمارة: وماذا الآن يا علاء، هل سيسكت العدو وقد شهدت فضيحته كل وسائل الإعلام العالمية وسفارات الدول وشركات الطيران؟!

- فليفعل الذي يريد، لقد أحدثنا اليوم نصراً معنوياً ليس لشعبنا فحسب إنما لكل شعوب العالم المقهورة، وإننا لم نعد نستقبل الضربات ونرد انفعالياً على جُرم الاحتلال، بل أصبحنا نملك المبادرة الفاعلة كيفما نشاء وفي الزمان الذي نشاء.

- لا إله إلا الله، ألا تدعينا نفرح قليلاً يا صديقتي، ألا تعلمين أننا ضربنا تل أبيب؟!

- لم يتأقلم حَمُكة بعد مع الزواحف الصغيرة، وعليه أن يفعل ذلك، فهي بالعشرات إن لم تكن بالمئات، وقد نسي اللحظة أنه ضيفٌ عليها وليس العكس.

«ذاكرة المظلوم!!»

الأحد الثالث عشر من تموز، اليوم الخامس للكمين.

- شعور يصعب وصفه بسهولة، حتى الذي كان يرفض المقاومة المسلحة، بات يخجل من الجهر بذلك، ربما ليس قناعة بضرورة المواجهة بقدر ما يرضي الغضب الذي بداخله وهو يرى الطائرات تطحن أبناء شعبه.

شعورٌ بالفخر بالوطنية، بالانتماء، ليكن ما يكون، لقد صنع أداء المقاومة الفرقَ في وعي الفلسطيني، المنتمي لخيار السلاح وغيره، يصرخ المتألمون في شوارع القدس ورام الله، تتحدث دموع القهر على ألسنتهم: نعم لدينا مقاومة، يضربنا العدو منذ عشرات السنين، سنضربه بعد اليوم.

- لا يمكنك وصف ذلك بنزعة انتقام وإن كان يحقُ للضحية فعل ذلك وفق شرعية الأرض والسماء، لكن ذلك تقزيمٌ لما حدث، إنها دورةُ التاريخ، وغضبة المظلوم الذي انتصر لضعفه وأصبح جيشًا

يملك نـواة التحريـر، تدركُ ذلك جـدَّاتُ المخيـم، وأزواجهن يـومَ النكبةِ يبكـون قِلّـةَ الحيلـةِ في مواجهـة العصابـات الصهيونيـة، التـي تحولـت جيشـاً منظـماً يملـك أدوات النـصر، تُزغـردُ إحداهـن، تنظُـمُ في المقاومة أهازيـج شـعبية كانت حبيسـة الصدر، بعد أن سـألت حفيدهـا المقاتل في وحـدة الصواريـخ: يـا سـتي، هـل صحيـح أنكـم قصفتم تـل أبيب؟!.

- ليـس فقـط تـل أبيـب، بـل الخضـيرة حتـى حيفـا، ألا تصدقـين يـا جـدتي؟!.

- صواريخ من عندنا، حقيقية تطير، كالتي يضربنا بها الملاعين؟!.

- تطـير وتجعـل المحتلـين يهربـون إلى الملاجـئ، ومنِ صُنـعِ أيدينا وربنا بـارك فيها.

- ثـم تبـكي وتبـكي: الحمـد للـه، الحمـد للـه يـا رب، جـاء اليـوم الـذي يحمينـا فيـه أولادُنـا، ونـرى ذلـك عيانـاً وليـس كذبًـا علينـا في الراديو!!

- ذاكـرة المظلـوم، أخصـب مـن الأرض الخـضراء، لا تمحـو العقـود شـيئاً مـن آلامهـا، فالأفـراح دائمًـا مقرونـة بالأحـزان، قصـفُ تل أبيـب يقابله مشـهد الطـرد مـن يافـا واللـد والرملـة، صـدقُ المقـاوم وعزمُـه وإرادته الحديديـة، يقابلـه الكـذب في إذاعـة صـوت العـرب وجحافـل الجيوش العربيـة توشـك أن تدخـل تـل أبيـب!!، فشـل الوعـود والآمـال المعلقة باسـتعادة مـا تبقـى من الوطـن على مائـدة المفاوضـات، يقابلـه انتزاع غـزة بالقـوة من أيـدي الاحتلال بعـد أن كان قادتهم يقدسـون بقاءهم

فيها قائلين: نتساريم مثل تل أبيب إن تخلينا عنها سنتخلى عن تل أبيب.

حينها استبسل خيارُ الفيتناميين وثوار العالم، ووضعوا تلَ أبيبَ قبل نتساريم، صُلبَ أعينهم، فإن حرروا نتساريم الجاْثمةِ على أرض غزة حتماً سيصلون يوماً إلى تل أبيب، فكانت الأولى وحذاء المقاوم على صدر المحتل عام ألفين وخمسة وبقيت الثانية أقرب زمانياً من هزيمة المحتل الفرنسي في الجزائر وانسلاخهِ دون رجعة.

- وتمضي الحرب، وسكان الأرض في كمينهم ينتظرون، يتحرق الأهل شوقاً لسماع خبر عنهم، وأعداد الشهداء تزداد يوماً بعد يوم، لكن أحداً لا يملك الإذن بالإفصاح عن أي معلومة تتعلق بهم، وفي ذات الوقت، لم يَرُق لقيادة أركان العدو ما يحدث، وخسائرها المعلنة على الأقل تعصف بسمعتها، ولا شك أن خسارتها الأبرز في ميدان المعنويات، التي بدأت تنهار لدى جبهتها الداخلية غير المهيأة لما يحدث بها، في مقابل معنويات حديدية يتمتع بها الخصم العنيد الذي يقاتل وظهره للبحر، يدفعها إلى التفكير ويشهد نصرًا يوازي ما حققته المقاومة بالأمن عندما هجرت آلاف الصهاينة المغتصبين من بيوتهم التي أقاموها على الأرض الفلسطينية في تل أبيب، وخاصة أن سياسة الرقابة العسكرية «تسنذورة» لم تعد تتحكم بكل مصادر المعلومات، حيث بدأت خسائر الاحتلال تظهر بين طيات الصُحف ووسائل الإعلام الصهيونية التي كانت بالأمس سرًّاً مقدساً، فالقُبة الحديدية المخُصَّصَة لاعتراض الصواريخ تُثبتُ فشلها، بعد تسريب

جـزء مـن الخسـائر التـي تحدثهـا صواريـخ المقاومـة في بيـوت العـدو ومقراتـه، حيـث تشـير الأخبـار، إلى أن مائة وسـتين بنايـة أصُيبت خلال الأيـام الماضيـة منها عـشرون في القدس المحتلـة، وأن العدو بات مضطراً للإفصـاح عـن بعـض خسـائره البشريـة تمهيـداً لـشيء أعظم!!-

- يشـتد القصـفُ ضراوةً، يشـعر أهـل القطـاع بذلـك، يصمـت العـالم الآثـم المتواطـئ، تبـكي الشـعوب الحـرة في كل مـكان، غـير أن المقاومـة مسـتمرة، يؤلمُهـا وجـع النـاس، لكـن أحـداً لا يدفعهـا إلى التراجـع إن سـمعت بعـضَ الطنـين المُزعـج القـادم مـن غـير مواقـع الـشرف!!.

- تتصل غرفةُ العمليات: كونوا على أهبة الاستعداد..

- يرد القائد علاء: هل هناك جديد؟!.

- معلوماتنـا تقـول إن العـدو رغـم تـردده، يقـترب أكثر من اتخـاذ قرار الدخول.

- هـل هنـاك تقديـر دقيـقٌ لحجـم العمليـات، محـدودة، واسـعة، أم مـاذا؟ نحـن مسـتعدون لجميـع الاحتـمالات، وبالمناسـبة، إخوانكـم في النخُبـة أفشـلوا عمليـة إنـزال كبـيرة لنخُبـة العـدو «شـتيت 13» عـلى شـاطئ السـودانية في غـزة.

- اللـه أكـبر واللـه الحمـد، يحاولـون رد الاعتبـار لخسـارتهم في زيكيـم عـلى أيـدي الضفـادع.

- بالتأكيـد، وهـذا مـا كنا نتوقعـه، لذلك وقعوا في كمـين إخوانكم الذين استدرجوهم وقتلـوا منهـم مـا بين أربعة إلى سـتة مقاتلين ثم انسـحبوا مضرجين بدمائهم.

«أبابيل في حضرة العشق!!»

الاثنين، الرابع عشر من تموز، اليوم السادس للكمين.

- كانـوا يدركـون أنهـم خمـسُ حكايـات مختلفـة، أعينهم تفضـح ذلك، يقظتُهـم كشـفت كيِـف ينسـجون أحلامهـم، فمهما أخفت الأمـرَ جديةُ مهمتهم، لن تسـتطيع سـلب إنسـانيتهم التي تتحرك من وراء بنادقهم، يسـأل حَمُكـة جـاره عـلاء الملاصق لمكان جلوسـه، فاتحـاً أحاديث اليوم التـي بـدأوا يعتـادون عليها بعـد الظهر إلى ما قبـل أذان المغرب بنصف سـاعة: لماذا لم تتزوج؟!

- سـؤال منطقـي لشـاب يبلغ من العمر سـتة وعشرين عامـاً في المشرق العـربي وتحديـداً غـزة، فأجـاب علاء: من قـال لك إنني لسـت متزوجاً؟ تفاجأ الجميع..

- ماذا يعني ذلك، اشرحها بالعربي؟!

- لا أدري إن كان النفـقُ، هـو المـكان الصحيـح للاعـتراف بذلـك ولكـن لا بـأس.

- لحظة، على مهلك،- قال سمارة تحت وقع الصدمة بعد أن تحول الأمر من مجرد التسلية الإيجابية إلى اكتشاف أمر غريب: يا رجل نحن نعرفك منذ فجر التاريخ فكيف يكون ذلك. أتسرح بنا؟!

- هي الحقيقة التي لا يعلمها أحدٌ غيري.

- قاطعه إبراهيم: ها، تزوجتَ في مصر أيها الماكر عندما ذهبت لعلاج رجلك، ولكن.--!

- من دون لكن، ليس في مصر، بل في قطاع غزة وخان يونس تحديداً.

- يا شيخ علاء، ما عهدنا عليك الكذب، وأنا بصراحة لا أستطيع استيعاب ما تقول، أين ومتى وكيف حصل ذلك ونحن أبناء مسجد واحد وحيّ واحد، إذا عطستَ في بيتِك قالت لك خان يونس بأكملها يرحمكم الله.

- صديقي إبراهيم، تزوجت قبل ثلاث سنوات بعد تخرجي من الجامعة بسنة واحدة، وعندي الآن طفلان جميلان يصاحباني أينما أذهب.

- أضاء سمارة مصباحه الكهربائي وأداره على وجوه رفاقه الثلاثة وتحديداً علاء الذي أغلق عينيه من شدة الضوء، ثم وجه كلامه لإبراهيم وحَمُكة: هل دخل في رأسكما ما يقول هذا الرجل؟!

- فرد عليه إبراهيم، عجوز الزُمرة الذي يكبُر علاء بعامين: منطقياً لا،

لكـن علاء بالنسـبة لي صادق.

- ثـم نطـق حَمُكـة: اسـمعوا، كل شيء في غزة جائز، وأعتقـد أن إخواننا عندهـم مـشروع لتزويجنـا، أليـس كذلك يا عـلاء، ولكن، لمـاذا كل هذه السِريَة؟!

- لا هـذا ولا ذاك، المهـم أننـي تزوجـتُ الفتـاةَ التـي لطالمـا حلمت بأن تكـون شريكـة حيـاتي، وأكـثر مـن ذلك، فلـدي شـقّة في «السـطر الغربي »، هنـا في مدينتنا.

- أيضـاً شـقّة، لا تقـل إنـك تزوجـتَ ابنـة ثـري أو أرملتـه الصغـيرة واشـترطت عليـك كتـمان زواجكـما. قـال سـمارة.

- فأكمـل إبراهيـم ضاحـكاً: وأنـك لا تبيـتُ عندهـا ليـلاً، فنحـن نعـرف أيـن تكـون، لعلـك تـسري إليهـا نهـاراً، أليـس كذلك؟!

- لا أعـرف _! توقـف عـلاء عـن الحديـث، لسـماعه صوتـاً في غرفة البئر أعـلى النفـق، وسرعـان مـا تلقـوا إشـارة عـماد الـذي بـدأ بنـزول البـئّر: السـلام عليكم.

- فسارعه الرجال بالسؤال: هل حدث تطور؟!

- لا، إنما أحببتُ أن أمر عليكم، عندما رأيت الجو يسمح بذلك.

- فاستنكر علاء قدومه: يا عماد، هذا خطير.

- لا تقلقوا، حركة الناس شبه معدومة لشدة القصف، وتطور الأحداث، ثم إنني فعلاً أريد إطعام الطيور والتنظيف عليها، وأنتم ماهي أخباركم.

- فرد سمارة: نحسد الطيور على ذلك، فنحن نتمنى حمّاماً ليس بالضرورة ساخنًا.

- فعلق علاء: «الثائرُ يُعرَفُ من رائحته النتنة».

- ضحك الجميع للمقولة، رغم إعجابهم بمعناها: أتعلمون من قائل هذه الكلمات؟!

- لا تقل عمر المختار فليس بمفرداته، قال إبراهيم مُستغرباً.

- هوتشي مِنّه «زعيم الثوار الفيتناميين الذين قهروا بإرادتهم غطرسة أمريكا».

- الآن، سأل حَمُكة كمن ينتظرُ إجابة تأجلِت كثيراً، فأثار فضول عماد: هل فاتني شيء لا تنسوا أنكم في ضيافتي؟!

- صديقنا علاء متزوج --!

- عندي طفلان ومنزل أدفع أقساطه المرُيحة، لأن راتبي كضابط في الشرطة يسمح لي بذلك!

- قاطعه إبراهيم، زميله في المهنة: يا رجل توقف عن الهذيان، فأنت لا تتقاضى أكثر من ثلاثمائة وعشرة دولارات، وكلانا يعرفُ ذلك جيداً، وهي لا تكفي حتى لعشرة أيام.

- لا، لا، من أين تأتي بهذا الكلام، فمنذ أن جرت الانتخابات التشريعية عام ألفين وستة التي اعتبرها العالم نزيهة بامتياز وفازت...

- نعرف من فاز فيها، لكن ما علاقة زواجك بهذا وقد كنتَ حينها لا تزال في التوجيهي؟

- انتظر يا إبراهيم، وبعد أن اعترف العالم بديمقراطيتنا التي أفرزت خيار المقاومة الذي نال على الأغلبية في المجلس التشريعي، تم تشكيل الحكومة من القائمة الفائزة، وفتحَ العالم أبوابه لها بعد أن باركها تيارُ التسوية السياسية الذي سلمها مقاليد الحكم بسلاسة مُطلقة، محترماً خيار شعبه، واحترم الغربُ- واحة الديمقراطية – البرنامج السياسي الذي رفعته القائمة الفائزة والذي يقول إنه غير مُلزَمٍ بالاعتراف بشرعية الاحتلال، لأن ذلك ليس من اختصاصه، وبدأ بعدها الخيرُ يعم على الضفة الغربية وقطاع غزة، حيث بدأ الاستيراد والتصدير والاستغناء عن العمل في دولة الاحتلال، لأن الحكومة التي تلقّت الدعم من العالم أجمع، فتحت المصانع ووسعت الزراعة واستجلبت الاستثمار الخارجي للبلد، وقد تفهَّم العالمُ أن قضية فلسطين أعقدُ من أن يخوض فيها مجموعة أشخاص منذ سنوات طويلة، حتى تَخرّجتُ من الجامعة وتوظفتُ من الشرطة.

- قاطعه سمارة: واستيقظت من النوم فوجدت نفسك مُحاصراً، ولكن أرجو أن تخبرنا كِيف تَعرفت على زوجتك على الأقل، في عالمك الخيالي لأننا نعرف الحقيقة؟!

- تهكم كيفما تشاء، المهم، أصبح معي الحد الأدنى من تكاليف الحياة الآدمية وتزوجت! صحيح أن دولة العدو حاولت مع أمريكا وبعض الكارهين لوحدة شعبنا، أن تثير الفتنة بين الفصيلين الكبيرين في الشارع الفلسطيني عبر تعطيل الدوائر الحكومية وعدم التعاون مع الحكومة الجديدة، ثم إذكاء الخلافات وصولاً للاغتيالات والاحتراب الداخلي المُسلح فانقسم الوطن إلى حكومتين، واحدة في الضفة تعترف بها «(إسرائيل)» فتنال رضى العالم وأمواله، والثانية في غزة محاصرة من جميع الجهات حتى تعترف بإسرائيل وتنبذ الإرهاب « المقاومة « وتعترف بكل الاتفاقيات، لكنَّ الفصيل الذي خسر الانتخابات رفض ذلك بقوة حتى أنه شارك في الحكومة وأعطى نموذجاً رائعاً في الديمقراطية أخرست المتآمرين، وهكذا ---!

- سكت علاء على سكوت المقاتلين الذين كانوا يتألمون وهم يستمعون ثم ختم علاء وجعه: كم كان جميلاً لو حدث ذلك، ولا يعيش أهلنا في غزة، تحت الحصار الخانق منذ ثماني سنوات ثمناً لخيارهم في صندوق الاقتراع، وألا نضطر إلى خيارات لا نحبها أدت إلى هذا الانقسام السيئ، المقيت، الذي أضعف مشروع المقاومة.

- ورغم ذلك، لم تقل لنا على الأقل، كيف كانت زوجتك؟!

- يـا سـمارة، ألا يجـب أن تكـون موجـودة أصـلاً حتـى أخـبرك عنهـا؟! قالهـا مبتسـماً، وهنـا تدخـل إبراهيـم: لـو اسـتجبت لاقتراحـي يومهـا، لربمـا كنـت متزوجـاً الآن!

- حتـى لـو انضممـتُ إليـك في حينها، فلن أسـتطيع وأنـت تعلم ظروفي في البيت.

- لحظـة يـا جماعـة، أنـا كما يقولـون «مثل الأطـرش في الزفـة» ما الذي اقترحتـه عليه ولم يسـتجب لـك فيه --؟!

- قاطعهـم حَمُكـة الـذي اسـتغل الحـوار وأدار الراديـو لسـماع الأخبار: لـن تصدقوا!

- تكلم بسرعة.

- زيدوني حبة تمرٍ يومية حتى أخبركم.

- ألهذه الدرجة الخبر مهم؟! قال عماد مبتهجاً.

- وأكـثر، فقـد أعلـنَ إخوانكـم عن تسـيير طائـرات «الأبابيـل» من دون طيـار إلى عمـق الكيـان الغاصب.

- لم يتمالـك المجاهـدون أنفسـهم، فكـبروا وسـجدوا شـكراً للـه وعاودوا السـؤال: كيـف ذلـك، تحـدث بسرعة؟!

- نشروا تصوير فيديو يظهرها في الجو، وهي تحمل على متنها صواريخ هجومية وتصور بنفسها ذلك، وطائرة أبابيل ثانية، استطلاعية، اخترقت العمق المحتل عام ثمانية وأربعين واستطاعت الوصول إلى تل أبيب وتصوير مقر وزارة العدو «الكرياه».

- حَمُكة، هل سمعت هذه الأخبار، أم تسرح بنا كما فعل علاء قبل قليل؟!

- قال سمارة وهو يوكزه بكتفه: ليس هذا فحسب، فهناك طائرة أبابيل من النوع الثالث والتي تقوم بهجمات انتحارية في مواقع العدو، فجرها العدو بعد دخولها بنصف ساعة.

- يا الله، نصف ساعة، أتدرون معنى ذلك.. علق علاء.

- اسمعوا هذه المعلومة، أسقطوا الطائرة التي انطلقت بمحاذاة شواطئ غزة ودخلت إلى العمق المحتل بصاروخ باتريوت قيمته ثلاثة ملايين دولار.

- الحمد لله، الحمد الله، الآن، الآن فقط....لفتت كلمات إبراهيم بقية الزمُرة، فسألوه عن الأمر: الآن يستطيع الشهيد نضال فرحات، صاحب مشروع الطائرات أن يرتاح في قبره، بعد هذا النصر العظيم وقد دفع حياته مع أربعة من إخوانه ثمناً في سبيل الله ومن أجل هذه اللحظة، عندما فخخوا له طائرة صغيرة جلبها من الداخل المحتل واغتالوه بها.

- استطرد علاء متأثراً: _رحمه الله زرْعُه أثمر أولَ طائرةٍ فلسطينية بدون طيار تصنعها أيدي المقاومة، من كان يصدقُ أننا سنفعلها.

- هذا الرجل، لم يكن عادياً، وددت لو كنت معه الآن كي أرى ردة فعله ليس فقط على الطائرة، إنما على صاروخ «الرنتيسي160» الذي وصل حيفا.

- يسأل حَمُكة: هل كان له دور في تصنيع الصواريخ؟!

- لقد كان الرائد في صنع الصاروخ الأول الذي وصل مداه الأقصى إلى (3) كم.

- قال سمارة متفاعِلاً مع سيرة الشهداء: لا أزال أذكر، رغم صغر سني آنذاك، كلمات المفكر العظيم، عبد الوهاب المسيري، _رحمه الله_ على قناة الجزيرة عندما شاهد الصاروخ المحلي الصنع، ينطلق من أرض غزة: «اليوم يجب أن يحتفل العالم العربي بهذا الإنجاز».

- وفجأة وبشكل مفاجئ، قال عماد: لن أستطيع المغادرة ولا حتى النوم، قبل أن تخبروني قصة إبراهيم ومقترح الزواج وعلاقة ذلك بعلاء.

- لكن حَمُكة قطع الأمر مرة ثانية ودعاهم إلى الاستماع إلى حصاد اليوم الإخباري، وقد جاءت فلسطين بأحزانها وأفراحها إلى النفق، مائة وثمانون شهيداً تجلس دماؤهم على أعتاب النفق تحرس عزم

الرجـال وتقسـمُ عليهـم ألا تتراجـع أقدامهم للـوراء، فلا تـزال أرض غزة ترتـوي مـن دمـاء الأطفـال والشـيوخ والنسـاء، ولا يـزال أشرار الأرض يزرعونهـا بالمـوت، لكـن صراخ طفلـة صغيرة وقفت على أنقـاض غرفتها الجميلـة تحمـل بين ذراعيهـا الوطن، أخرسَ القذائف المـوت:» غزة راح تنتـصَر وبـس»، وعنـد العـدو كانت غـزة اليـوم، تصفع كبريـاءه، تحطم عنجهيـة أمسـه التـي اغتالت خليـل الوزيـر في تونس، وقد ثـأرت لدمه الطاهـر عـلى شـاطئ السـودانية لتنـال مـن ذات الوحدة «شـيتت 13» التـي قتلـت الشـهيد عـام 1988 للميلاد.

- واليـوم في زمـن المقاومـة الجـادة، والإرادة التي تصنـع الفعل النوعي، تتوقـفُ أبـرز قناتـين فضائيتيْن للعدو مـن البث، ليظهر إعـلان المقاومة عـلى شاشـتهما: قادتكـم يقودونكـم للهـلاك، مصير جنودكـم قتل،جرح، أو أسر.

- يفقـد المحتـل عقلـه، لقـد دخلـت المقاومـة إلى كل بيـت عنـده، تخاطبـه بلغتـه العبريـة، تتفـوقُ عليـه « باعترافه « في الحرب النفسـية، جبهتـه الداخليـة تعـاني وجبهـة المقاومـة الداخليـة تقـفُ مـن خلفـه، تـؤازره، تحـذره مـن التراجـع: لم تعـد تخـافُ عـلى شيء يقتلوننـا كل يـوم، يصـادرون أحلامنـا، يهـوّدون قدسـنا، يلتهمـون أرضنـا ويزرعونهـا بالمسـتوطنات، يغتالـون أعـمار أبنائنـا في الأسر، يحاصروننـا مـن كل جانـب، يريدوننـا عبيـداً لهم وقد خلقنـا الله أحراراً، كـذب العالمُ علينا، تواطـأ عـلى ذبحنـا، قدَّمنَـا وأرضنـا قربانـاً وتكفـيراً عن ذنبـه «المُفترض» بحـق اليهـود في ألمانيـا، لكننـا اليـوم مقاومـة، ليس منا «فيشي»، فرنسـا

ولا أصغر من ذلك، نحن حيفا ويافا وبئر السبع وعكا، لم نعد أسرى ذنب لم نقترفه بحق أحد، لن نعترف بشرعية مُحتلٍ لا يزال يحمل جنسيةَ بلده الأصلية، نحن مقاومة وفقط، منذ اللحظة فلتسكت كل الأوهام ولتحيا البندقية، ليخرس ما دون ذلك...

- وفي حيّ الأمل، حيث جبهة الحبُ والخوف والدعاء وارتقاب طيفٍ يمرُ من جانب إبراهيم، جلست تحتضنُ ولدها محمد، الذي غفا بين يديْها ولم يملّ من تزويد سؤاله الدائم منذ غياب والده: متى سيعود بابا؟

- قريباً إن شاء الله.

- لماذا لا يأتِي للبيت؟

- لأنه يقاتل العدو، ألم يقل لك ذلك عندما غادَرَنا؟

- هو لا يحبنا، أنا رأيت صديق بابا يأتي عند أولاده كل يومين.

- لا تقل ذلك يا حبيبي، بابا يحبنا كثيراً لكنه في مكان لا يستطيع القدوم منه الآن.

- كانت تكذب على قلبها، تحاول إسكات خوفها، ارتعابها من مجرد تعودها على غيابه، لا يزال دفء صدره يجري بين ضلوعها يوم أن فارقها لمهمته، مستودعاً روحه في قلبها، ابتسامته التي أخفت حكايا العاشقين، فالمقاتلون وحدهم العُشّاق، وغيرهم عابرون على العشق،

مـاروّن بسرعـة، لكنـه حب تحميـه البندقيـة، ويختلط مع عَـرَقِ الثورة وحـده مـن يسـتحق الخلـود، راعها مشـهده وهـو يعانقَ والديـه، يقبَّل محمـد وأسـماء، تختلـس النظـرات إليهـا، ثـم يـسرقُ قُبلـةً مـن جبينها: أسـتودعك الله.

- تجيبه بلسانها: حفظك الله، أنت والشباب.

- لكـنّ روحهـا، قلبهـا، أجمـل لحظـات حياتهـا، كلهـا كانـت تتشـبثُ بـه، تعانقـه، تسـتحلفه التريـث أكـثر: لم تشـبع روحـي منـك، وتسرقُـك اللحظـةُ منـي، ليـت شِـعري وكأني بفراقـك أسـيرُ إلى قـبري، تشـيعُني أنفاسُـك، تقـرأ عـلى فـؤادي آيـة حُـزنٍ مـن آلاف الكلـمات، وترثينـي شـهيدةً عـلى أعتـاب دفئـك، لم يخطـئ قلبـي الحزيـنُ يومهـا، ويَـدُكَ تحتضـن عُمـري، تأخـذني إلى حيـث يطيب للعاشـقين الحيـاة، قالوا إنك راحـلٌ لا محالـة، تخطبُ وُدَّ السـماء، تجلـس في كبدها قمراً يُرتّلُ شِـعرَ العظـماء، فقلـتُ: أي وربي وهـل يليـق بصفحـةِ قـدرَي إلاك؟! تزرعُنـي شمسـاً، حكايـةً، أو زهـرةً في بقيـةِ عُمـرٍ إنْ عشـناه معاً، كنتُ الشـهيدة عـلى حُـبٍ، فارسُـه أنـت، وشـاعرُه أنـت، مُبتـداه في قلبـي ونهايتـهُ في السماء.

«الألمان في النفق!!»

الثلاثاء، الخامس عشر من تموز، اليوم السابع للكمين.

كانت الضربة قريبة جداً، شديدة، مفاجئة، ارتعدت لقوتها الأرض واهتزت، وكأنها تستهدف النفق، لولا أن شيئاً لم يحدث لظن الرجالُ أنهم الهدف، حيث تريثوا في الاستنتاج والتخمين، بينما ينجلي الصوت والغبار الذي شعروا به دون أن يروه، تحدثهم مخاوفهم بأشياء يرفضون التلفظ بها على ألسنتهم، لكنها تفرض نفسها رغماً عنهم: عائلة عماد، وأهله، عماد نفسه.

- ثم يهدئهم علاء: وحدوا الله، لعله صاروخ في الأرض الفارغة.

- فيرد سمارة، الخبير بالمتفجرات والمتخصص بوحدة الهندسة: هذه الضربة استهدفت إحدى البنايات القريبة جداً، أسأل الله أن يلطف بأخينا عماد وسكان المنطقة.

- اقترح أن يصعد سمارة ويستطلع الأمر.

- فقال حَمُكة: أنا مع رأي إبراهيم، علينا الإسراع بذلك لا نريد المفاجآت.

- صعد سمارة بسرعة، منتقلاً إلى غرفة الطيور الوسطى، حتى يتمكن من الرؤية الجيدة، فوجد الطيور مرعوبة وهو يعرفها جيداً، يشعر بها عندما تكون على غير حالتها الطبيعية.

- يا إلهي، كانت كلمته الأولى عندما شاهد الطابق الثاني من منزل عماد الذي يسكنه مع والدته وشقيقته الأصغر مهدوماً دوناً عن غيره من المنازل التي لم يصبها أذى فنزل بسرعة: استهداف مباشر لمنزل عماد.

- هل انكشفنا، يتساءل حَمُكة، فيرد عليه سمارة بسرعة: لو تم كشفنا لما كنت تتكلم الآن.

- فيستفسر علاء: هل شاهدت أي أحد حول البيت؟ سيارات الإسعاف، أي شيء؟!.

- لا، وهذا ما طمأنني، فلو كان الذي نخشاه، لرأيت الناس هنا.

- يعلق إبراهيم ساخراً: يا رجل، هذا العدو لا يقيم وزنًا للبشر، وأنت تعرف عدد المرات التي استهدف فيها طواقم الإسعاف والناس الذين يهرعون للمساعدة.

- ومع ذلك، يقول علاء.

- ما شاهده سمارة إيجابي، على الرغم من أننا في منطقة حدودية.

- يا أحباب، ليس لنا بعد الله إلا الاستمرار في مهمتنا.. ولم يكد سمارة ينهي عبارته حتى اتصلت غرفة العمليات للاطمئنان على المقاتلين بعد رصدها لمكان القصف، وبعد تزويدها بصور الوضع، أبلغهم ضابط الاتصال بفشل هدنة طرحتها مصر، وأن العدو يستخدم «استراتيجية المناورة الخارجية» لرفع الضغط عنه عبر إدخال الوسطاء دون تقديم التنازلات.

- فقال علاء محذراً: علينا الانتباه جيدًا لألاعيبهم، وعدم الوقوع في مصيدة التهدئة التي يستغلونها للعمل الاستخباراتي.

- لا تقلق على إخوانك، ندرك تماماً ما يريده العدو، وكل أوراقه مكشوفة لدينا.

- سمعنا أنه طلب من أهالي حيّ الشجاعية إخلاء منازلهم.

- ليس الشجاعية فحسب، الزيتون وكل المناطق الحدودية، وقصة المناشير التي يلقيها من الطائرات لم تعد تجدي فبدأ القصف العشوائي لتهجير الناس.

- إذن، عقيدة الضاحية الجنوبية، يريد أن يرهبنا بما فعله في بيروت عام ألفين وستة، يهجر مائة ألف من حيّ الشجاعية ثم يدمر الحي بأكمله كما فعل بالضاحية الجنوبية.

- كل شيء وارد، لكنـه لـن يسـتطيع كسرنـا، يملك سـلاح الجـو الأقوى في المنطقـة وهـذا لا يكفـي، لأنه إذا اسـتمر في عنجهيته سـيضطر للدخول الـبري وهنـا سـيكون امتحانـه الصعب بـإذن الله، وإلى حـين ذلك، نحن مسـتمرون في ضربـه وتعطيـل الحيـاة لديـه الأمـر الذي لم يحـدث منذ عـام ثمانيـة وأربعين، وسـنرى إلى متى سـيبقى يخفي خسـائره.

- أنهيـت المكالمـة وسـط حماسـة المقاتلـين الذيـن يسـتمعون للحديـث وقـد لفهـم الغضـب عـلى عـدوٍ لا حـدود لسـفالته وانحطاطـه، ولأنهم في فـترة المسـاء مـا قبـل نصـف سـاعة التـي يتفرغـون فيهـا للدعـاء والاسـتغفار والتسـبيح اسـتعداداً لتنـاول وجبـة الإفطـار التـي بـدأوا بالتأقلـم عليها منذ سـبعة أيام، الأمر الذي سـاعدهم بعـدم اضطرارهم لقضـاء الحاجـة اليوميـة واكتفـاء أمعائهـم بمـرة كل ثلاثـة أيـام، بـدأت الأمسـية التـي يتبادلـون فيهـا جميـع الأحاديـث، ولـولا حديـث غرفـة العمليـات الـذي فرض موضوعـاً بعينه، لاسـتمر النقـاش الطريف الذي افتتحـه حَمُكة.

- أتدرون لماذا أفكر في هذه اللحظة بالذات؟!

- يجيبه علاء بسرعة: بحبة التمر التي أردتَ أن تبتزنا بها.

- لا لا، لم تخمن جيداً.

- بفارسة الأحلام.. قال سمارة ضاحكاً.

- تنّهد حَمُكَة: أنا مثل علاء، هي في الخيال فقط، لذا لم تصب الهدف أيها العاشق.

- بمن حفر هذا النفق، ودفع من صحته ثمنًا لإنجازه؟!.

- لو جئتني يا أبا محمد، قبل يومين، لقلت لك أصبت، فقد دعوت الله _عز وجل_ أن يبارك الأيدي التي حفرته مع عماد، وأن يشفي من أصابتهم أمراض الظهر والربو وضيق التنفس أثناء الحفر.

- ثم أكمل علاء: ويرحم الشهداء الذين قضوا بحوادث العمل خنقاً تحت الأرض.

- هل يمكن أن أسأل كل واحد منكم ويجيب بصراحة عما يفكر فيه، قبل أن تعرفوا ما فكرتُ به قبل لحظات؟! وقبل أن تبدؤوا إن وافقتم، سأجيب عن سمارة بنفسي، لقد فكر بالخطيبة!.

- أخطأت، كان يجب أن أتركك في الشارع يوم أن عملنا حادث الدراجة النارية.

- لماذا، أتريد أن تقنعنا ولسانك لم يتوقف عن ذكر حبيبة القلب طيلة الأيام المنقضية، أنك لم تكن تفكر بها؟!

- أيها الجاهل بالغرام، وكيف لي بقول نعم، وهي لم تغادرني لحظة واحدة؟

- فصفق ثلاثتهم بهدوء: ها لله، ها لله، امرؤ القيس في نفقنا.

- أراها في كل شيء، تسكن في كل جزء مني.

- وبشكل مفاجئ، سأله علاء: ألا تخش أن يؤثر هذا على عزيمتك في المقاومة، وربما يدفعك إلى التراجع وإيثار الحياة الطبيعية قُرب الخطيبة ؟

-لو كنتُ كذلك، لما أصررت على البقاء في وحدة الاستشهاديين.

-أجاب سمارة بشيء من الانزعاج، فاستدرك علاء فوراً: سامحني يا أخي، ربما لم أوفق في صياغة السؤال، فلا تعُر أعزباً لم يظهر على عورات النساء قط، أي اهتمام.

-كانت عبارة علاء، الذي تخرج الكلمات من فمه، بتلقائية جميلة، سبباً لانفجارهم بالضحك، ثم عاد سمارة للحديث: فلسفة وجودنا هنا من أجل أهلنا، إنساننا الذي يرقب منا أن نحميه حتى لو لم يشأ أن نغادره، لذلك، أرى الذي يجلس على سرير زوجته دون أن يقدر على حمايتها جبانًا وأكثر.

-يا حَمُكة، قل لنا بماذا كنت تفكر، ودعنا نتحدث بأمر آخر، قال إبراهيم.

-سأقول، شريطة أن تخبرنا أنت، ولا تهرب كعادتك.

- ضحك إبراهيم وبدأ بصوته الجبلي الجهور: لا أُنكر، زوجتي وأطفالي وأمي وأبي، لا تفارقني صورهم، لكنني أحاول جاهداً عدم الانشغال بهم، وأنجح إلى حد كبير، فنحن في مهمة وحده المولى ـعز وجلـ، من يعلم كيف ستنتهي، والآن تحدث يا حَمُكة فوراً.

- أفكر بمن فاز بكأس العالم «ألمانيا» التي أحُب أم غيرها!!.

- فصاح سمارة على وقع ذلك، طالباً من علاء، وهو يمُسك بسلاحه: دعني أطلق النار على هذا أي ـحَمُكةـ، نحن على أبواب الشهادة وهو يفكر بكرة القدم.

- في تلك الأثناء، حدث أمرٌ غريب فاجأ الجميع، غرفة العمليات تتصل، وتبلغ علاء: جهز نفسك جيداً لتلقي مكالمة من جهة مدنية حصلت على إذن خاص من قائد اللواء، لدواع إنسانية، للحديث معك، وتم ترتيب الأمر بصورة جيدة انتبه لكلامك.

- قل لي، من هذا ــــ. قاطعه المتكلم وهو يبتسم وقد ظهر الأمر بنبرة حديثه.

- علاء، يمّا علاء كانت كلمة «يمّا»، بثلاثة أحرفها الجميلة أروع ما سمعهُ علاء منذ ولادته، فرد عليها بحرارةِ رضيعٍ غاب عن ثدي أمه دهراً: يما.... كانت أمه التي لم يتعود على فراقها.

- نعم يا عمري، أين أنت يا حبيبي، لقد متُ خوفاً عليك.

- لقد ظننتُ _! ثم توقفت عن إكمال جملتها...... وقد جابت خان يونس وهي تبحث عن أثره لدى المجاهدين الذين يجهلون طبيعة مهمته.

- لا تقلقي يا والدتي، أنا بخير والحمد لله.. فأخذت بالبكاء وهي تسمع صوته، فتأثر كثيراً، آلمه بكاؤها، فأعطى السمّاعة لإبراهيم: كيف حالك يا حاجة؟!

- أهلاً يا ولدي، قل لي بالله عليك، هل علاء بخير؟!

- طبعاً يا والدتي، ألم تسمعي صوته؟.

- لماذا لا تتواصلون معنا ما دمتم بخير، ولماذا كل هذا الغياب، لقد أفزعتمونا؟!

- يا والدتي العزيزة، إن شاء الله ستنتهي الحرب قريباً ويعود لكِ علاء.

- إن شاء الله، ربنا يحفظكم يا ابني ويسدد رميكم ويخلصنا من المحتلين.

- المهم، أن تكثري من الدعاء لنا.

- ثم عاد علاء بعد أن تحدث معها سمارة وحَمُكة، وأخذت تخبره بقلقها عليه، وماذا فعلت كي تصل إليه وعن قلق والده وإخوانه،

حتى أنهى المكالمة بصعوبة وقلبه معلق بأنفاسها التي اخترقت كيانه عبر الهاتف.

- هو قائدهم، الجندي الأكثر صلابة في خط المواجهة المتقدم، قوته، إيمانه، عزيمته، تشكل قدوة لجنده في الميدان وأيّ إشارة ضعف وتراخٍ لأي سبب كان، ستكون في غير صالح المهمة، كان علاء يحدث نفسه بذلك، وهو يهاتف والدته: اثبت ولا تتأثر، فمعنويات رجالك المقبلين على المعركة، أهم من مشاعرك، لكنها أمُي، وطني الذي لا حدود له، جنةُ ربي في أرضه، هي التي أرضعتني فلسطين حتى أصبحتُ مقاتلاً، لم تدفعني يوماً إلى التراجع، وما الضير إن بكت عيني شوقاً لدفء صدرها، لكن لا يجب أن يروني ضعيفاً، فليبكِ قلبي فقط.

- كانت ساعات المعركة تتقدم للأمام، والمقاومة تزداد صلابة بعد أدائها المميز الذي أذهل العالم وأعطى ثقة عالية للمؤمنين بخيار التحرير، أن المعركة الحقيقية قد بدأت، وفي المقابل العدو لم يجب حتى اللحظة عن سؤال الأمن الشخصي لأفراد كيانه الغاصب، لذا بات من المؤكد أنه سيفعلها، سيرتكب حماقة الاجتياح البري ليغذي شهوة الدماء لديه، وإلى حين ذلك كان اقتصاده ينهار والمقاومة تطلب من شركات الطيران العالمية عدم المجيء إلى فلسطين لأنها ستضرب مطار اللد «بن غوريون» فتستجيب تلك الشركات بعد اعتراف العدو بسقوط صاروخ على بيت بجانب المطار، ودولته تتوقف عن الحياة التي سلبوها من الشعب الفلسطيني، أما

الهدنـة الإنسـانية، فتفشـل، ويضطـر العـدو مجـدداً للإفصـاح عـن أول قتيـلٍ صهيـوني، وأن دعايتـه الإعلاميـة لرفـع معنويات جبهتـه الداخلية وإحبـاط المقاومـة سـقطت ولم تعـد مجديـة وأرقـام خسـائره تتناقلهـا وسـائل إعلامـه الصهيونيـة، أكـثر مـن أربعمائـة منـزل تـم الإبـلاغ عـن تدميرهـا بصواريـخ المقاومـة، ونصـف الرقـم ويزيـد مـن الحافـلات المحروقـة، وعـشرات الحقـول الزراعيـة التـي سـلبوها وسرقـوا خيراتهـا، غـدت أثـراً بعـد عـين، كل ذلـك، وأهـل الكمين يسـمعون النذر اليسـير مـن تفاصيـل الحـرب، يشـعرون بـكل شيء ويتفاعلون، لكنهـم بعيدون عـن التأثـر المبـاشر، لأن مهمتهـم لم تبـدأ بعـد، وغـير مطلـوب منهـم إرهـاق الأعصـاب، لـذا، يتكـرر روتينهـم اليومـي، يبتكـرون أحاديثهـم اليومية حتى لا يصيبهم الملل، يسـتحضرون الأشـياء الجميلة كي يتغلبوا عـلى ضيـق المـكان وقلـة الأكسـجين التـي تأقلمـوا عليهـا، صحيـحٌ أن علاقـة وَدٍ تربطهـم بالمـكان، ليـس لأنه جـزء من وطنهم فحسـب، لكن نجـاح مهمتهـم منـوط بـه، فهم يتشـوقون لتلقين جنود العدو درسـاً في فنـون الشـجاعة والفدائية، فقـد تدربوا على ذلك ووصلـوا الليل بالنهار حتـى يكونـوا عـلى جهوزيـة قتاليـة عاليـة، ودائمـاً، كانـت مأسـاة عجز الأجـداد وتخـاذل الأنظمـة العربيـة عن النصرة، يوم سـقطت فلسـطين بيـد العـدو، دافعـاً للتدريب أكثر، للتعـب أكثر، للبـكاء في التدريب من شـدة التعـب، يغيـب المقاتـلُ في النخُبـة شـهراً كامـلاً عن البيـت، يأخذ دُورةً مغلقـة غـير التـي اجتازهـا حتـى يصبح مقاتلاً في صفـوف كتائب القسـام، وعندمـا يقـف أمـام قادته في التدريب، يسـمع جملـة واحدة: أنـت هنـا حتـى تـدوس بقدمـك في شـوارع حيفـا وتـل الربيـع وصفـد،

فـإذا رأيـت نفسـك أقـل مـن ذلـك فاذهـب للبيت، ثـم يسـمع العبارة الثانيـة: حتـى تكـون مقاتـلاً في النخُبـة، يجـب أن تتفوق عـلى خصمك في نخُبـة العـدو.

- ثـم تبـدأ معركـة التحمـل وصناعـة رجـل التحريـر، الخبـير بالقنـص، هندسـة المتفجـرات، الـدروع، المشـاة، المدفعيـة، يقـف مدربهم وسـط التدريـب وهـم يسـتعدون للإغـارة عـلى العـدو: لا تخذلـوا الشـهداء الذيـن يرقبونكـم الآن، ثـم يفعلونهـا كالأبطـال أثنـاء التسـلل لمواقـع المحتـل، والاسـتطلاع والكمائـن، يبيـت المقاتـل ليلـة في نفـق، ثم يوضع مـع مجموعتـه ثلاثـة أيـام كاملـة في الخـلاء في «تدريـب التعايـش» بعيـداً عـن النـاس ليـس معه سـوى سـلاحه ومـا يبقيـه حيـاً، وفي نهاية الـدورة يخضـع لامتحـان نظري وعمـلي كمقاتل في وحـدة النخُبة، تنظر إليـه الأمـة كحفيـدٍ لصـلاح الديـن، فإن نجـح واجتـاز ذلك، بـدأ مرحلة جديـدة في جهـاده ومقاومتـه، وإن كان غـير ذلك بكى وانتحب وتوسـل لإعـادة الـدورة حتـى لا تفوتـه مواقع الـشرف المنتظـرة لرجـال النخُبة.

«برتقال يافا!!»

الأربعاء السادس عشر من تموز، اليوم الثامن للكمين.

- لا يـزال النفـق بأهلـه وجدرانـه وحتـى الطيـور، يترقـب أي خـبر عـن عـماد، فمنـذ الأمس والمقاتلون على أعصابهم خشـية عـلى أخيهم الذي أحبـوه وأصبـحَ جـزءاً منهـم، لا يعرفـون مـاذا حـدث، وهـم مطمئنـون عـلى أمـن مهمتهـم لعدم اسـتهدافهم جـواً، ولأن الأرض لا تـزال محرمة عـلى قـوات الاحتـلال البريـة التي لم تجـرؤ حتـى اللحظة عـلى الدخول رغـم اسـتدعائها ثمانيـة آلاف جنـدي إضافي اسـتعداداً للاجتيـاح، ولكن: أيـن عـماد؟ يسـأل إبراهيم الذي يلوم نفسـه أنـه لم يخُـبره القصة التي أثـاره عنوانهـا وذهـب ولم يسـمعها: سـأخبره بـكل الذي يريـد معرفته، المهـم أن يظهـر، لقـد تعودنا عليـه ولا أرى مهمتنـا بدونه.

- عـماد، رجـل يعـرف جيـداً القواعـد الأمنيـة ولا أراه سـيأتي إلينـا بعـد اسـتهداف منزلـه بصـاروخ أرض_ أرض، فربمـا كان الاسـتهداف موجهـاً لـه، وهـو أذكى مـن أن يكشـف موقعنـا.

- تحدث سمارة بثقة كبيرة بعد أن توقف قليلاً عن قراءة ورده اليومي من القرآن الكريم على الضوء الآتي من فتحة البئر، وهو ما تعود على فعله منذ زمن طويل يوم أن أصبح عضواً في حركة المقاومةِ الإسلامية حماس التي يمر فيها العضو بمراحل تربوية تصاعدية تتناول الجانب الإيماني والعقدي والثقافي إلى جانب مفاهيم المقاومة التي ترتبط بكل ما سبق، حيث ينشأ في النهاية مجاهد ملتزم تجاه دينه وشعبه وأمته، ومن هنا يتم اختياره في صفوف القسام بعد أن يتم التحقق من سلوكه الأخلاقي تجاه أهله والناس واستعداده للبذل والعطاء من أجل وطنه السليب.

وفي حاله الرجال الخمسة، وضمهم لوحدة النخُبة، فهذا يتطلب شروطاً إضافية غير التفوق العسكري واللياقة العالية والشجاعة الفائقة، يسأل حَمُكة قائد علاء: لقد ظننتُ عندما أبلغوني بهويتك كقائد لزمرتنا، أنك ستضم أبا حمزة إلينا، لكنني تفاجأت بعودته إلى وحدة الإسناد المكلفة بتغطية ظهر المجاهدين وأنه لم يعد في النخُبة، فما الذي حدث، لقد كان أبرزنا في التدريب وأشجعنا أيضاً؟

- وهو كذلك، لكنه كرر مخالفة تم تحذيره بشأنها!

- إننا نستغرب جداً، فالرجل أنموذج للمقاتل التقي، الملتزم، صاحب الأخلاق الحميدة!

- سمعه أحد الإخوة يرفع صوته فوق صوت أبيه أمام الجيران.

- لعله بالخطأ، لماذا تسرعتم.

- كررها مرتين، وهذا لا يليق بالشاب المسلم فضلاً عن عضو النخُبة، الذي يُكلف بالمهام الحساسة، فأخطاؤنا بحق أفضل الناس علينا، قد يحبط جهادنا، ثم كيف تريد أن تقاتل العدو ووالدك غير راضٍ عنك؟!

- أعوذ بالله، خير لي أن أموت قبل أن يحدث ذلك.

- على فكرة، تعلم أنني رفضت في البداية انضمامك إلى هذه المهمة.

- تفاجأ الجميع من حديث علاء وتصريحه بهذه المعلومة التي بات من المؤكد أنها ستجرح مشاعر حَمُكة وخاصة أن علاء، المؤدب، صاحب الحس المرهف، الحريص على مشاعر كل من يلتقيه سواءً من رجال المقاومة أو غيرهم من عموم الناس، يدرك أنه ليس الزمان والمكان المناسبيْن للتصريح بذلك، وتحديداً بعد الحديث عن أبي حمزة، الأمر الذي أزعج حَمُكة وبدا واضحاً وهو يقول: سامحك الله، ماذا رأيت مني حتى تفعل ذلك؟!.

- فتدخل إبراهيم لتلطيف الجو: لعل سبب ذلك غيابك عن حصة اللياقة الدورية قبل شهر؟.

- هي مرة واحدة وقد حضرت الحصة الثانية آخر الأسبوع فأنا ملتزم بحضور جميع الأنشطة، حتى أنني عوضت عن الحصة تلك وعلاء

يعلم بذلك، ويشهد الله أنني لم أغب مرة واحدة عن الحراسة الليلية في مواقع الرباط المتقدم على الحدود وو........!

- كان حَمُكة يتحدث بحرارة، متأثراً مما قيل، يدفع عن نفسه احتمالية أن يكون قد ارتكب خطأً دفع علاء إلى التفكير بإقصائه عن شرف المشاركة بهذه المهمة الخاصة جداً، لكن علاء الذي لم يكن يجلس تحت عين النفق هذه المرة، لم يظهر وجهه بسبب الظلام الدامس، قال مشفقاً على حُمَكة: اتصل بي قائد النخُبة قبل فترة وأخذ يخبرني باختياركم للمهمة، وتفاجأت أنه سيضم شخصاً غريباً إليكم، لم أسمع باسمه قط!.

- تفاجأ سمارة: ومن يكون هذا الشخص؟.

- أخبرني أن اسمه محمد رمضان، فرفضتُ ذلك، فأصَّر على بعثه، بعد أن سألني: ما الذي حدث، لماذا ترفض الرجل، هل طرأ منه شيء لا أعرفه؟!.

- هذا الرجل الغريب، لم يتدرب معنا ولم أسمع باسمه نهائياً!.

- جيد، إذن، سأبعث لك حَمُكة، هل يعجبك حَمُكة.

- حَمُكة مقاتل صلب، نعرفه ويَعرفَنا، وهو معنا في النخُبة، ابعثه فوراً.

- صمت القائد قليلاً ثم سألني: أتعرف اسم حَمُكة الشخصي؟.

- بادلته الصمت ثم أجبت: أعرفه منذ كان صغيراً، ولا أعلم له اسماً غير حَمُكة.

- إذن، تعّرف على أحد جنودك أيها القائد، حَمُكة هو محمد رمضان.

- ضجت جدران النفق الترابية من الضحك، والأغرب من ذلك أن إبراهيم زاد بالقول: وأنت تتحدث عن محمد رمضان، حاولت أن أتذكر، أين سمعت هذا الاسم؟

- في تلك الأثناء التي تدحرج فيها الحديث، كاسراً حالة التوتر التي صاحبت النفق منذ استهداف منزل عماد ومصيره المجهول حتى اللحظة، انتبه الجميع لتفاعل سمارة فقال حَمُكة: لا تقل إنك لم تتعرض لمثل ما حصل بشأني، فإن سألوني عن اسمك، سأفكر قبل أن أجيب، لأنك ببساطة شديدة، سمارة وفقط.

- وهنا تحمس الشباب: هيا اعترف.

- الصحيح، أنني أكاد أنسى اسمي بعد أن صاحبني اللقبُ منذ أن حفر الناس البحر، حتى خطيبتي يحلو لها أحياناً مناداتي بسمارة.

- يا رجل تضامن مع حَمُكة واكشف لنا موقفاً طريفاً يتعلق باسمك.

- في أحد الأيام، كان إخوانكم في حيّ الأمل يريدون نقل كمية من الإسمنت إلى أحد الأنفاق، فطلبوا من قائد السرية تزويدهم بأحد

المجاهديـن: «أحمـد المدهـون» سـيكون عنـدك في لحظات!

- بالتأكيد، تمزح.

- لماذا، هل هذا وقت المزاح؟

- يـا أخـي، لا تسـتطيع كشـف النفـق عـلى مقاتـل مـن غـير منطقتنـا لمجـرد المسـاعدة.

- أصبحت الآن، لا تعرف سمارة.

- بالله عليك، سمارة اسمه أحمد المدهون، أول مرة أعرف ذلك!

- فقـال عـلاء مازحـاً: يعنـي عندمـا يرزقـك اللـه _عـز وجـل_ بولـد، سـيطبقون عليـه لقـب سـمارة الصغـير ويضـع اسـم عائلـة المدهـون.

- لا سـمح اللـه، فعائلتـي ليسـت مجـرد اسـم، إنهـا تاريـخ وحضـارة ووجـود!

- فقال علاء: اعرب لنا ذلك؟

- الأمر يتعلق بجدي، الذي جعلني أنتمي لعائلتي ـــــ

- قاطعـه عـلاء: نحـن ننتمـي للأمـة، للإسـلام، للمقاومة، لفلسـطين، أما الانتـماء العائـلي فهـذا مـا تحررنـا منـه منذ زمـن بعيـد، ثم ـــ

- على رسلك يا رجل، فلولا جدي وتربيتُه التي زرعها في صدري ورأسي لما أصبحت سمارة الذي تعرف، فقد كان بقصد الارتباط بعسقلان التي هجرنا الصهاينةُ منها عام ثمانية وأربعين وكنا حينها عائلة المدهون، لذلك، يجب أن يبقى اسم العائلة حباً ينبض بالقوة لأنه يعني الحق بالعودة إلى مسجد عسقلان القديم الذي حولوه إلى حانوت لبيع الخمور، وإلى بيوتنا العتيقة التي لا يزال منقوشًا عليها اسم عائلتنا.

- لقد أقنعتني.

- ليس هذا فحسب، بل رسم في خيالي حاكورة البيت هناك، وأنني إذا حفرتُ تحت شجرة التوت الضخمة، سأجد شيئاً دفنه جدي بنفسه قبل أن يقتحم اليهود المكان، وسيصبح مّلكاً لي!

- فسأل حَمُكة: هل عرفت ما هذا الشيء؟

- للأسف، توفي جدي _رحمه الله_ ولم يخبرني بذلك.

- لماذا لم تسأله؟

- شيء في داخلي كان يدفعني إلى عدم السؤال.

- تدخل إبراهيم: أحسنت، سنعرف هذا الشيء عندما نحررها _إن شاء الله_، لقد أصبح لدينا هدف جديد نسعى إليه.

- الصحيح، أنني بت أغار منك فعسقلان على أبواب غزة وتحريرها قاب قوسين أو أدنى، أما بلدي يافا، فسيأخذ تحريرها زمناً أطول.. قال حَمُكة جاداً.

- فأجابه سمارة: ما رأيك أن تأتي مكاني إلى عسقلان وأذهب إلى يافا بدلاً منك؟.

- ماذا؟ لقد فهمتني خطأ، أنا لا أستبدل العالم بعروس البحر، يافا، يا رجل، رائحة البرتقال اليافاوي لا تزال تعْلَق بأنفي منذ أكثر من ستين عاماً!

- فقال علاء: كيف ذلك، سيد حَمُكة وأنت لم تتجاوز الواحد والعشرين من العمر؟

- انتقلت لي مع أنفاس عائلتي التي لا تزال تحتفظ كل شبر من بيارات البرتقال هناك، حتى أوروبا التي كانت تعشق برتقالنا وتستورده منذ قرون ما قبل النكبة، تحفظ لنا تلك الرائحة.

- علاء تكلّم يا رجل، أهل يافا وعسقلان يسيطرون على النفق.

- دعهم يا إبراهيم، من أين يصلون إلى ما وصلت إليه الرملة واللد، ثم قل لي بالله عليك، هل يستطيعون السفر من مطار اللد المقام على أرض مدينتنا دون أخذ موافقتنا؟

- استثار الكلام حَمُكة: من أين ستأتي الرملة واللد، بحيّ كحيّ العجمي في يافا، منارة الثقافة الفلسطينية؟.

- لحظة، أنصتوا قليلاً «قال سمارة» هناك أخبار عاجلة في الراديو: العدو يستهدف أربعة أطفال من عائلة بكر لا تتجاوز أعمارهم عشر سنوات، عندما كانوا يلهون على شاطئ غزة والصحفيون يلتقطون ذلك بعدساتهم!.

- الجبناء، يستأسدون على الأطفال، لا يجرؤون بالنزول على الأرض _حسبنا الله ونعم الوكيل _.

- كان علاء يتحدث بحرقة وغضب.

- يكمل المذيع: العدو يقصف بالمدفعية بلدة بيت لاهيا لتهجير أهلنا من المناطق الحدودية والمقاومة تكثف هجماتها الصاروخية على العدو وتتوعد جنود المحتل بالقتل والأسر حال تجرئه بدخول القطاع براً، ووسائل إعلام العدو بدأت ترصد هجرة المستوطنين الصهاينة القاطنين في غلاف غزة باتجاه وسط فلسطين المحتلة عام ثمانية وأربعين في تطور خطير للحرب وصفه أحدُ الإعلاميين الصهاينة بالكارثة!

- فصرخ سمارة: الله اكبر، بداية النهاية للاحتلال، هذا تحول استراتيجي في المعركة مع العدو، المقاومة التي كان يحلم بها أجدادنا تتحقق الآن وترغم الغاصبين على الهرب.

- نعـم – قـال عـلاء- لم نعـد وحدنا الذيـن تقصفنا الطائـرات والمدفعية لـترك بيوتنـا، الآن جـاء دورهـم حتـى يتركوا أرضنـا ويرحلـوا إلى بلادهم الأصليـة، بـل ينصرفوا عـن صدورنا.

- اسـمعوا هـذا الخـبر: العدو يذبح أطفالنـا ويدمر غـزة والعالم الأعمى يحتفـل بفوز ألمانيا بـكأس العالم!

- لحظتهـا أضـاء الثلاثـة مصابيحهـم ونظروا معـاً إلى وجـه حَمُكة الذي قـال فـوراً وهـو ينظر لأعلى: متـى سـيؤذن المغرب؟!

«عاصمة الإرهاب»

الخميس، السابع عشر من تموز، اليوم التاسع للكمين

- تصر عجوز جلست على دوار الشهداء في نابلس بالضفة الغربية أن ترفع لافتة كتبت عليها بخط يدها وأبجديتها الضعيفة: أنا مع المقاومة ولستُ خائفة.

- فبتطفل على صلابتها متحذلق: ألا تخشين أن يطالك القصف يا خالة؟!-

- كنت أخشاه منذ ستين عاماً، أما الآن فلا، على الأقل إذا مت أعلم أن ورائي مقاومة تعرف كيف تأتي بحقي وأنا تحت التراب.

- لكننا في معركة غير متكافئة فأعداؤنا يملكون الطائرات والبوارج الحربية والصواريخ الذكية، ومعهم العالم ونحن لا نملك سوى صواريخ لم تقتل إلا شخصاً واحداً حتى اللحظة، بينما سقط منا أكثر من مئتين وأربعين شهيداً وآلاف الجرحى.

- نظـرت إليـه بـشيء مـن الغضب وقد التَـف حولهما كثـير ممكن كانوا يشـاركون في المظاهـرة، يـودون صفـع المتحذلـق: أنا والدةُ شـهيد، مات ولـدي بـين يـدي دون أن يفعـل شـيئاً، ذنبـه الوحيـد أن نافـذةَ غرفتـه كانـت تطـل عـلى نقطـة مُراقبـة للاحتـلال تعتلي سـطح بنايـة مجاورة، وفيهـا قناص ـــ!

- سـكتت العجـوز قليـلاً ثـم اسـتأنفت ألمهـا: بكيتـه أكـثر مـن خمسـة وعشريـن عامـاً ولا أزال وكنـت ألـومُ نفـسي كل يـوم، لمـاذا لم أسـمح له بالانضـمام إلى رمـاة الحجـارة، عـلى الأقـل، إذا استشـهد سـيكون راضيًـا عـن نفسـه أنـه فعـل شـيئاً، وكأني بعينيه وهو يلقـط أنفاسـه، يعاتُبني، يشـكوني، يقتلنـي، ثـم يغمضهـما على ذلك ويغـادر، ومن يومهـا كفرتُ بالعـالم الذي كنت أظنه سـيحمي ولدي، كفرتُ بالسـلام الـذي قالوا إنه سـيدفع عنـا المـوت، كنـت أرى ما لا يـراه الآخرون، كلما سـقط شـهيد، رأيـت ولـدي في وجهـه والمصيبـة الأكـبر، أننـي كنـت أرى الشـهداء في وجـوه الذيـن كانوا يخدعـون الناس بأكذوبة السـلام والمجتمـع الدولي، صحيـح أننـي لم أكمـل تعليمـي، لكننـي أصبحـت أتابع الأخبـار، أحاول تكذيـب عينـي التـي ترى اليهـود يصـادرون الأراضي ويهدمـون البيوت ويقتلـون ويـشردون وأقـول: لعـل العـالم عـاد إلى ضمـيره وسـيوقف الاحتـلال عنـد حـده، لكنني اكتشـفت أن ذلك سراب ووهـم، لم يتحرك شيء للأمـام، ولا تـزال الدمـاء تسـيل، عقـدوا الاتفاقيـات وصـار عندنـا «سُـلطة» لكنهـا لم تمنعهـم مـن القتـل والإرهـاب، وكيـف سـتمنعهم وهـي لا حـول لهـا ولا قـوة، لأنهـم أرادوها هكـذا ----.

- تستمر العجوز بالحديث وكأنها موجٌ هادر، لا تستطيع قوة على وجه الأرض إيقافها: عام تسعة وثمانين في انتفاضة الحجارة، قتل الاحتلال أحَد عشر شهيداً في المدينة في ساعات قليلة، كان سلاحهم الوحيد، الحجارة، فقلت: ما دامت دماؤنا سهلة عند عدونا فلماذا نجعل الأمر سهلاً عليه؟ لكنني لم أدر ما أفعل، حتى جاء «هيثم الجملة» الذي رفض أن يموت بسهولة فغرس سكينه في قلب الجندي قبل أن يستشهد، وتبعه عامر أبو سرحان في القدس الذي قتل ثلاثة، فأخرس العجز وجفف بعضاً من دموعي، لكن العدو لا يشبع من الدماء كما فعل بنا منذ حطت أقدامه على أرضنا، فقتل العشرات في المسجد الأقصى وهم يصلون، فكان عماد عقل الذي قتل جُندهم في شوارع غزة وداسَ على رؤوسهم، وكلما زاد الاحتلال من بطشه، كانت فلسطين تنجب من رحمها الخصب أبناءً بررة يعرفون قيمة الحياة، حتى التقيتُ به!!.

- كان الشباب يجلسون من حول العجوز ينصتون بخشوع لحديثها والآلاف يقتربون من الميدان، قادمون من أرجاء المدينة دعماً لصمود المقاومة في غزة، وعندما توقفت عن الحديث، سارعها شاب صغير من جيل الانتفاضة الثانية عام ألفين: بمن التقيت يا جدتي؟.

- كان يشبه ولدي، عينيه، وجهه الجميل، قامته الفارهة، سحنته التي تنطقُ بالحياة، فلحيته السوداء زينت شبابه الصاعد، خرج من غرفة التحكم بحياة البشر وحريتهم في مبنى الإدارة المدنية هكذا سماها الاحتلال، وكانت مصنع الكراهية والإجرام ضدنا، حيث يجلس في

الداخل ضابط مخابرات العدو، سألته: هل سمحوا لك بالسفر يا ولدي؟ فأجابني والحسرة في عينيه: كنت أعلم يا خالة، أنهم لن يوافقوا، فلقد أتيتُ إلى هنا مراتٍ عديدة.

- لماذا تريد السفر يا حبيبي؟

- للدراسة، فأنا من الأوائل في الشهادة الثانوية، وكنت أطمح بالسفر حتى آتي بالدكتوراه من الخارج.

- ولماذا لا تدرس هنا، أليس لدينا جامعات؟

- صحيح يا والدتي، لكنها لا تعطي إلا الدرجة الجامعية الأولى «البكالوريوس» وأنا أريد أن أصبح عالماً في التخصص الذي أحبه.

- حينها بكيت، إنه ولدي الشهيد: أحلامه التي لا حدود لها وإرادته الوثّابة، فتأثر عندما رآني على تلك الحالة: لا تبك يا والدتي ولا تجعليهم يرون دموعك، ثم اصطحبني خارج هذا المكان السيئ، ولم أعد راغبةً بالسفر للعلاج لأنني أحفظ الدرس جيداً: فقط ساعدينا حتى نساعدك.

- الكلاب يريدونني أن أبيع ديني ووطني ولأصبح خائنةً لشعبي، نعم لا أريد السفر، حتى جارنا أبو محمد الذي كان يريد استخراج رخصة لتوسيع مصنعه الصغير، ساوموه على ذلك: فقط زودونا بأسماء راشقي الحجارة ومنظمي المظاهرات؟ فمزّق أبو محمد

الطلب ووضعه تحت قدميه: الرازق هو الله، واللُّقمة المغموسة بالخيانة لن تقترب من أفواه أطفالي ما حييت.

- أوصلني إلى البيت، رجوته أن يبقى قليلاً، أن يعطف على شيخوختي بإطلالة وجهه التي حملت صورة ولدي: لا أستطيع يا أمي.

- ما أجملها من فمه، يطلقها بصدق.

- علي الإسراع قبل أن يُغلقَ الحاجز العسكري فلا أستطيع العودة للقرية، فهؤلاء المحتلين لا دين ولا أخلاق لهم، بالأمس فقط، أنجبت امرأة على الحاجز بعد أن منعوا السيارة التي تقلها من المرور.

- وماذا حدث للأم وطفلها؟

- عاش الطفل وماتت الأم.

- ازداد الصوت اقتراباً والحشود تملأ الشوارع المؤدية إلى ميدان الشهداء الذي يتوسط المدينة التي وصفها رئيس وزراء العدو _ الهالك _ أرئيل شارون: بعاصمة الإرهاب نظراً لدورها المركزي في المقاومة، لكن أحاديث العجوز لا تزال تجذب المتحلقين حولها.

- استمري يا جدتنا.

- هؤلاء القتلة لا يحفظون عهوداً ولا مواثيق، استغلوا إعلان العرب استعدادهم للسلام، فأخذوا يزيدون من رذائلهم، ضاعفوا حصارهم

وقتلهـم وتهويدهـم لـكل شيء حتـى المسـجد الأقـصى لم يسـلم منهـم، يحفـرون تحتـه منـذ عـشرات السـنين بحثـاً عـن أوهامهـم الكاذبـة، يريـدون هدمـه ولا يقيمـون وزنـاً لأحـد، وهـذا مـا دفعهـم إلى ارتكاب مجـزرة الحـرم الإبراهيمـي الشريـف عـام أربعـة وتسـعين بعـد توقيـع أوسـلو ـــــ!

- تدخل المتحذلق: ما علاقة أوسلو بالمجزرة، وهذا شيء وذلك شيء؟

- هـذا لأنـك لا تعـرف اليهـود، أسـأل نفسـك لمـاذا صنـع اليهـود هـذه الأنفاق؟

- لأن العالم اقتنع بحقوقنا فضغط على الاحتلال حتى يوقّع.

- بـل لأن الاحتـلال الـذي لا يقيـم وزنـاً لعالمـك هـذا، بـات يـدرك أن انتفاضـة الحجـارة تحولـت إلى رصـاص يطـارد الجنـود والمسـتوطنين لذلـك سـارعوا إلى إجهـاض ذلـك، وبعـض قومنـا وقعـوا في هـذا الفـخ الـذي دفعنـا ثمنـه غاليـاً، ثـم كانـت المذبحـة في المسـجد الإبراهيمي في الخليـل التـي قُتـل فيهـا العـشرات وهـم سـجود في صـلاة الفجـر، حتى تكتمـل الصـورة ويقسّـموا المسـجد زمانيـاً ومكانيـاً فيما بعـد، وهـذا ما حصلـت عـلى سـمع وبـصر العـالم الـذي سـلّم بأحقيـة المحتلـين بالجزء الأكـبر في المسـجد ولم يقـم وزنـاً لأوسـلو.

- هذا احتلال يا حاجة، وليس بيدنا حيلة.

- هـذا لأنـك تريد أن تكـون ضعيفًا، لذلك، كان يجـب عليك ألا تفاوض على حقوقك.

- لكن السياسة يا حاجة، خذ وطالب.

- اضحكـوا عـلى هـذا الفتـى المسـكين، لقـد فرطـوا بثمانيـة وسـبعين بالمائـة مـن فلسـطين التاريخيـة مقابـل «سُـلطة حكـم ذاتي» هزيلة، يا ولـدي، الـذي يفـاوض وليـس بيـده قـوة السـلاح سـيخضع، ثـم احفـظ هـذا جيـداً «الـذي لا يسـتطيع الـزواج لا يحـق لـه الزنـا».

- وهنا عاد الشاب الصغير: وماذا حدث بعد المجزرة يا جدتي؟!.

- جـاء الوقـت حتـى نردعهـم عـن دمنـا، مـا دام لا أحـد في هـذا العـالم يملـك أن يوقـف الذبـح فينـا، فلـم يتوقفـوا عندمـا قاومهـم رجالنـا في شـوارع الخليـل وطولكـرم وغـزة، لذلـك كانـت العمليات الاستشـهادية في كل مـكان، حتـى يذوقـوا شـيئاً مـن العلقـم الذي يسـقوننا إيـاه منذ زمـن بعيد.

- عـاد المتحذلـق للمداخلة: لكنها جلبت علينا شـجب العالم واسـتنكاره ووصـف المقاومة بالإرهاب؟

- سـحقاً للعـالم الـذي لم يحمنـا، هـو آخـر مـن يتحـدث عـن الإرهـاب، عندمـا يتوقـف _أولاً_ عـن دعـم المحتـل سياسـياً وعسـكرياً ويتدخـل لوقـف الجرائـم بحقنـا، عندهـا سـنفكر بهـذا الأسـلوب مـن المقاومـة.

- حاول المتحذلق إثارة العجوز مجدداً، فوقف له الشاب: اصمت، ودع أفكارك إلى زمن آخر، فهذا زمن الجدة، زمن المقاومة، أكملي يا جدتي ودعك من هذا.

- كان همنا ردع المحتل عبر ضربه في العمق، ودفعه إلى إعادة التفكير بكل جرائمه بحقنا، وأن زمن السكوت على دمنا قد مضى إلى غير رجعة وهذا ما كان في انتفاضة الأقصى أيضاً، والتي كانت درساً للصهاينة لن ينسوه أبدًا، وقد أثمر ما ترونه الآن من عِزّة وكرامة يترجمها أبناؤنا في غزة، وقد بدأوا مشروع التحرير.

- لم يعد ممكناً سماع صوت العجوز التي وقفت على قدميها بمساعدة الشباب، متكئة على عكازها الخشبي القديم، لأن الجموع التي ملأت الميدان كانت تهتف:» يا قسام يا حبيب اقصف اقصف تل أبيب» وبينما العجوز تهم للتحرك للأمام، اقترب منها الشاب الصغير وطبع قبُلة الاحترام والتوقير على يدها، ثم سألها: من أنتِ يا جدتي؟

- فابتسمت وهي تمسح بيدها على رأسه: أنا المقاومة وما اسم ذاك الشاب الذي يشبه ولدك؟

اقتربت من أذُنه هامسة: يحيى عياش.

«عَالَمٌ ظالمٌ وجبان»

لم يهدأ القصف على غزة، زادت وتيرته بصورة جنونية بعد انقضاء ساعات الهدنة الإنسانية القليلة، كل آلات الدمار تعمل في جسد القطاع الثائر، لكن المقاومة ثابتة، صواريخها تحط في مواقع المحتل فتهزه بالأعماق، تحطم خططه، تفقده التركيز، أما أهل النفق! خط الدفاع الأول، كانوا يرابطون بصبر وهدوء، ورضا عجيب لما هم فيه من ظروف قاسية، هم يدركون أنهم ليسوا وحدهم في الخطوط الأمامية وأن الأرض تحتضن إخوانهم، لم يسألوا أنفسهم: ماذا أفعل هنا وغيري يجلس في فراش زوجه؟

تحاول فهم التركيبة النفسية والفكرية لشاب متعلم، وناجح يُصرّ أن يكون في المقدمة دون أن يتلقى مقابل: جرائم الاحتلال، القتل، التعذيب، الأسر، الحصار، أسباب ودوافع كثيرة وصحيحة، لكنها لا تكفي لذلك، فالشعب بأكمله يتعرض لصنوف القهر والإجرام تلك وقلةٌ من يتقدمون الصفوف وينزرعون في باطن الأرض حتى يحمونها بأجسادهم.

- كان الوقت ما بعد الظهيرة، وقد أدى الرجال الأربعة صلاة الظهر جماعة، على قسمين، حتى تبقى الحراسة متواصلة، وكانوا قد اتخذوا هذا القرار قبل عدة أيام بعد دراسته، فهم حريصون على إبقاء صلتهم بالله قوية والأخذ بالعزائم، رغم درايتهم بفقه الجهاد وأحكامه التي تعطيهم الرخصة في كثير من الأمور، ولعل ذلك يفسر جزءاً من صلاتهم وقناعتهم الحديدية بكل يا يقومون به، وتلك مشكلة العدو الصهيوني الذي يواجه جيشاً من الثوار، العقائديين الذين يعتبرون أرضهم المسلوبة والمُغتصبة، جزءاً من دينهم لا يستقيم إيمانهم حتى يرفعوا الظلم عن أهلهم وأرضهم، يفهمون جيداً أن صراعهم ليس دينياً بالضرورة، حتى ولو كان العدو بذاته بفعل ذلك فيحتل الأرض باسم الدين اليهودي، ويهوّد القدس بذات الدافع أيضاً، لكنهم يعلمون أن المعركة وجودية بين حقهم التاريخي والحضاري المتواصل في فلسطين وما بين قراصنة جاؤوا من هوامش العالم ليصنعوا لهم وطناً باسم ديانتهم على حساب الغير.

- يقول سمارة بعد أن سمع خبراً في الراديو عن فلسطيني في القدس هدم بيته بيده: أعلم أن العالم باعَ ضميره للشيطان، لكن حتى الشيطان يفعل الخير أحياناً!.

- فسأله حَمُكة: وكيف ذلك، أول مرة أن أسمع الشيطان يفعل الخير؟

- يدلك على خير صغير حتي يصرفك عن خير عظيم، هذا العالم

« الرسمي « الجبان، يقول إن القدس الشرقية، أرض محتلة وفق القرارات الدولية، ومع ذلك، لا يستطيع حماية إنسان ذنبه الوحيد، أنه بنى بيت العمر لأطفاله، ولما علم الاحتلال بذلك، استنفر جميع قواته: لماذا بنيت دون أن تحصل على رخصة البناء؟

- لأنكم ترفضون استصدارها، رغم أني دفعت لكم كل ما أملك، وأولادي في الشارع أريد أن يحميهم سقف من برد الشتاء.

- لا تحاول، أنت مخالف للقوانين.

- لكنكم تمنحون اليهود تصاريح للبناء في كل شبر من القدس دون أي إعاقة، رغم أنهم غرباء على المدينة؟!.

- هذا ليس شأنك، تريد هدم البيت بيدك، أم نهدمه بجرافاتنا وتدفع ثمن ساعات عملها؟!

- ويبدأ المسكين بالهدم كمن يطعن جسده بيده.

- بتدخل علاء: أتعرف يا سمارة، أظن بأن الشيطان يرفع القُبعة للصهاينة، فالأمر هنا ليس له علاقة بقانون دولي ولا قوة منطق، إنما بمنطق القوة، كل العالم يعرف أن التاريخ والجغرافيا تقف إلى جانبنا، ومع ذلك يحترمون القوي حتى ولو كان ظالماً ما دام يحقق مصالحهم، هم يعلمون أن اليهود كغيرهم مروا على هذه الأرض وانصرفوا، كما فعل اليونانيون والفرس والفراعنة والرومان

الذيـن بنـوا حضـارة هنـا وغيرهـم الكثـير، فلـو كان يحـق لـكل عابر في أرضنـا ادعـاء أحقيتـه بفلسـطين لـكان الإيطاليـون مثـلاً أولى النـاس بها فلديهـم آثـار وكنائـس في كل شـبر من بلدنـا، ومع ذلك يـدرك العالم أن أجدادنـا الكنعانيين أول من سـكن هـذه الأرض واسـتعمروها وتواصلوا فيهـا حتـى اليـوم بعـد أن تزاوجـوا مع الفلسـطينيين القادمـين من وراء البحـار، لكنهم!!

- معركتنـا مـع المحتـل لا يحكمهـا إلا البندقيـة، الإكثـار مـن التحليـل والتوصيـف لـن يقودنـا إلى شيء.

- وبينـما سـمارة ينهـي كلمتـه الأخـيرة، كان عـلاء يضـع قدمـه عـلى موضـع الصعـود للأعـلى حتـى يقـضي حاجتـه أمام أعـين الطيـور، فجأة لاحـظ إبراهيـم أن عـلاء يتـألم وهـو يصعد فلحقـه بسرعـة فأصبحا معاً في غرفـة البـئر، ولم يخرقـا أمـن المـكان بفعلهـا لأن ذلـك مسـموح شرط الحفـاظ عـلى الهـدوء الشـديد والبقاء لدقائـق معدودة: هل انتكسـت رُكبتُـكَ مجدداً؟!

- لا لا، تعثرت فقط.

- لكنني، رأيتك تتألم.

- أستحلفك بالله أن تكتم الأمر، هو ألمٌ بسيط لا يستدعي القلق.

- لكنك تقود مهمة حساسة ويجب......

- يا أخي أنا مثل الحصان، بماذا أقسم لك، ألم ترني بعد العلاج؟

- صحيح لكنَّ الله أعذرك.

- فقاطعه علاء بشدة وعلامات الغضب في وجهه: لا عُذر اليوم لأحد، لقد انتظرت هذه اللحظة طوال حياتي ولن أسُجل على نفسي جريمةً أن يمر العدو في موقعي هذا دون أن أحطمه أو يسحقني، فوفر كلامك لشخصٍ غيري.

- سنحطمه معاً إن شاء الله، فقط أحببت الاطمئنان عليك.

- نزل الاثنان لنفق «الوصلة» بعد أن قضيا حاجتهما وتفقدا المنطقة من خلف النافذة التي كانوا يتحكمون بها جيداً مما تتيح لهم إلقاء النظرات السريعة للمكان القريب من النفق، وفي هذه المرة، كانت خطوات علاء الرشيقة المتعمدة رسالة لإبراهيم وسكان الوصلة أن قائدهم بكامل لياقته، وفي الأسفل كان سمارة يحدث حَمُكة بحرارة وانفعال وقضوا على أجهزة الاستشعار والمراقبة.

- فسارعه علاء بسؤال: هل فاتني شيء؟

- لقد نفذت النخُبة عملية إنزال خلف خطوط العدو في منطقة صوفا داخل أرضنا المحتلة عام ثمانية وأربعين.

- وما هي خسائر العدو، هل أسروا جنودًا؟

- لا، يقـول إخواننـا في بيانهـم، أن الإنـزال هدفـه الاسـتطلاع بالقـوة، شـارك فيـه ثلاثـة عشر مجاهـداً عادوا بسـلام بعـد تنفيذ المهمـة والتي كانـت في الرابعـة والنصـف فجـراً.

- العـدو لـن يسـكت عـلى ذلـك، هـذه العمليـة في العظـم، تربـك حسـاباته.

- فـيرد سـمارة: مـاذا سـيفعل، هـل سـيخترع شـيئًا لم يسـتخدمه ضدنـا، سـيرتكب الحماقـة ويدخـل برياً وتلـك نقطة ضعفه التي سـيمنحها لنا، وقبـل أن أنسى!

- تكلم قبل أن تنسى، قالها علاء مبتسماً كعادته.

- فخـخ الشـباب فتحـة النفـق التي عـادوا منهـا، وفي اللحظة المناسـبة، فجـروا العبوات بسـلاح هندسـة العدو، والأهـم أن التفجير الذي حدث صبـاح اليـوم تـم تصويره مـن جانب إعـلام المقاومة.

«على حدود الشجاعية"

- وقفت ملتصقة به تحتضن ذراعه، ترجوه بدفء صوتها الرفق بشيخوخته، فهي حفيدته الصُغرى شبيهةُ جدتها، التي كادت عسقلان تقتتل فيما بينها عندما أصرّ والدها تزويجها لغير ابن عمها الذي يُفترض أن يُنزلها عن الفرَس لكنه لم يكن يستحق عينيهْا الواسعتين كمرج ابن عامر، وثغرها الساحر الذي تبارى فيه شعراء الزجل فيما بينهم، فزوّجها لشجاع القرية «الفلاح الفقير الذي استبسل في الدفاع عن قريته في وجه الغارات الصهيونية التي كانت مقدمات العدوان عام ثمانية وأربعين: أرجوك يا جدي، دعنا نعود إلى البيت.

- لم يسمع رجاءها، وهو يرقب أسراب النساء والأطفال والعجائز وهم يعبرون من أمامه هرباً من جحيم القذائف على حيّ الشجاعية الذي يقطنون، وقد عاد الشريط ذاته أمام عينيه، كابوس التهجير القسري قبل ستة عقود ونصف وشعبٌ بأكمله يحمل تاريخه وذكرياته.

تلاحقه القذائف يعبر إلى المجهول هرباً من الموت، ذات الصورة والسيناريو، فيصرخ العجوز: لا لن يتكرر المشهد، عودوا، لا تخافوا، موتوا في بيوتكم.

- لم يكن أهل الشجاعية لاجئين بل هم من أهل غزة الأصليين، مواطنون أقحاح لكن استخدام «عقيدة الضاحية «بحقهم، لم يكن عبثاً وهم خط الدفاع الأول عن المدينة، ويعتبره قادة العدو أشرس المقاتلين وأمهرهم، ومن بينهم خرج كثيرون من قادة المقاومة أبرزهم أحمد الجعبري الذي اغتاله الصهاينة فاندلعت على إثر ذلك حرب حجارة السجيل عام ألفين واثني عشر.

- هوّن عليك يا جدي، لن يذهبوا إلى أي مكان، سيعودون ريثما يتوقف القصف.

- لا تصدقي هذا الكلام لقد وعدنا العرب بذلك ولم نعد إلى أرضنا، يجب أن يعودوا ويستشهدوا في بيوتهم.

- كانت «أمل» مشطورة القلب لحظتها، والنصف هناك حيث الحبيب لا تدري أين يُقاتل وما الذي حدث معه، والنصف الآخر مع الذي يرفض أن يمر المشهد أمامه مرة أخرى:يا جدي الحبيب، انظر إلى الناس جيداً، نساء وأطفال وعجائز الرجال لا يزالون هناك!.

- لحظتها فقط نظر إلى وجهها الجميل، ثم أكملت:

هـم يسـتعدون لقـبر المحتلـين إذا حاولـوا الدخول، أقسـم لـك يا جدي إن مـا أقولـه صحيح.

- هل أنتِ متأكدة، أم تضحكين على جدك العجوز؟

- أستغفر الله يا جدي، سأريك الآن.

- ثـم نـادت عـلى إحدى النسـوة المارات باتجـاه مدارس وكالـة الغوث التـي فتحـت حتـى تـأوي اللاجئـين الجُـدد: حمـداً للـه عـلى سـلامتكم هـل اسـتطاع الاحتـلال دخول الشـجاعية؟!

- اسـتنفرت المرأة الشـابة، رغم إرهاقها وتعبها وردت بكبرياءَ: خسـئوا، الشـجاعية سـتكون مقابرهم إن شـاء الله فكل شيء في الحيّ ينتظرهم.

- هل هناك كثير من الشهداء؟

- معظمهـم مـن المدنيـين، فالقصـف عشـوائي للمنـازل، وهـذا مـا دفـع المقاومـة إلى طلـب المغـادرة منـا لحمايتنـا، لقـد رجوتهـم أن أبقـى لمسـاعدتهم، لكنهـم رفضـوا.

- وهنـا تدخـل الجـد الـذي كان يتكـئ على عـكازه القديـم وتتدلى على جنبـيّ وجهـه «حطتـه « البيضـاء الجميلـة والعِقـال الدائـري الأسـود يزينهـا كتـاج عـلى الـرأس وقـد ارتـدى ملابسـه التقليديـة التـي أبى أن يسـتبدلها خشـية عـلى ذاكرتـه مـن النسـيان أو التحـول: وهـل معهـم سـلاح كفاية؟

- لا تخش يا عم، ما حصل معكم لن يتكرر بإذن الله.

- ثـم قضـت المرأة بعزيمتها إلى حيث الضريبة التي يدفعها الفلسـطيني وهـو راضٍ لقـاء العيـش بكرامـة وعـزة، أمـا الجـد العجـوز، فاسـتدار عائـداً إلى بيتـه المؤقـت، تقـوده «أمل» التـي ذهبت بقلبهـا تبحث عن فارسـها المتيـم: أطلـتَ الغيـاب أيهـا العـذاب، في أي البلاد أنـت ما دون صـدري، أسـمعُ أنفاسـك ولا أراك، أشـم بقايـاكَ في الأفاق، يا سـيد قلبي المعظـم، مليـكي الـذي ليـس له رعيةٌ سـواي، أتـوق إلى عطرك شـوقاً إلى عـذب كلامـك الأخـاذ، إلى جيش همسـاتك الجميلة، دعـك عني وتعال، فـما عـدت أريـد غـيرك، لعلـك معتصّـم هنـاك خجـلاً تقـول: ومـاذا لـو عجـزتُ ولم أطربهـا إلى العـالم، لقـد وعدتهـا وقضى الحـب بذلك.

لا تقـل عـن روحـي مـا ليس فيها، أنـت العالم في عينيّ، غـزة في حضرتك جنة الدنيا.

سـأهبك هديـلا وأسـيل ومحمـد وصلاح الديـن، لا تكن طمّاعـاً، تكفيك وردتـان وفارسـان ولكـن!! أسرع بالعـودة، جيـشٌ من الشـوق يعسـكر هنـا، في قفـص مـن غـرام، سـكانه، أنـت وحـدك، لا تـدع القراصنـة يغتصبـوا حلمنـا، أدبِّهُـم وتعـال، لقنهـم درس الدفـاع عنـي وتعـال.

- بكـت أمـل وهـي تنظـر في صـورة سـمارة التـي تحتفـظُ بهـا تحـت وسـادتها، ولـو كانـت تنطـق لقالـت آلاف القبـلات والدمعـات التـي سـكنتها سـاعات الليـل والنهـار.

الدجاج المُتمّر!

- وفي النفـق، جلـس حَمُكـة إلى جانـب عـلاء، يهمـس لـه عـن سـمارة الغـارق في سرحانـه وهـو يبتسـم وقـد جلـس أسـفل البـئر: انظـر إلى سـمارة!.

- سمعتك، ماذا تهمس عني؟

- لا شيء، ولكـن نحـن إخوانـك وربمـا نستشـهد معـاً، فقـل لنـا بمـاذا تفكـر، باللـه عليـك؟.

- إذا قلـت لي بمـاذا كان يهمـس عـلاء وإبراهيـم قبـل سـاعتين أعـدك بإعلامـك؟

- فتدخل إبراهيم بسرعة: لم يكن شيئاً مهماً.

- لكنـه شيء، ونحـن هنـا إخـوة، مصيرنـا واحـد، ولا ينبغـي أن نخفـي شـيئاً عـن بعضنـا البعـض.

- وهنـا سـارع عـلاء بالقول: لا شيء يدعو إلى القلـق، آلمتني قدمي قليلاً وانتهى الأمر.

- فعلق سمارة: عادتك، لن تغيرّها أبدًا!

- فضحـك عـلاء واسـتنكر حَمُكـة: أصبحـت «كالأطرش في الزفـة»، قولوا لي حدثوني.

- بعـد أن أصابـه المـرض في ركبتـه، تآمـر مـع قائـد السرية حتـى يخفي الأمـر عـن قـادة النخُبـة، كي لا يعفوه مـن مهماتـه الجهادية.

- كـن دقيقـاً يـا سـمارة، كان الأمـر قبـل أن أجريـت العمليـة في مـصر، حينهـا لم أكـن أسـتطيع ثنـي الركبـة، لكننـي لم أكن قعيد الفـراش حتى أفضـح الدنيـا وتظفـر بالأجـر والثـواب لوحدك.

- وهنـا جـاء دور سـمارة بالضحـك، ثم أكمل علاء موجهـاً كلامه لحَمُكة عـلى مسـمع مـن إبراهيـم أيضـاً والـذي كان على علـم بـكل التفاصيل: تخيـل يـا رجل أن صاحبك هذا كان يسـابقني بـكل شيء، فكلما عرضت نفـسي للحراسـة مـكان أخ معـذور لم يسـعفه طـارئ للحضـور، وجدت هـذا السـمارة أمامي قد سـدَّ مـكان المجاهـد في الرباط.

- ومع ذلك، أصبحت قائدي، وهذا شرفٌ عظيم سألقى الله به.

- أنـا مسـتعد للتنـازل عِـن هـذا التكليـف، ولكـن شريطـة أن تعطينـي أجـر وثـواب مـا قمـت بـه بحـق إخوانك!.

- لا تقلـق، وصلـك مثـلي وزيـادة، فلـك أجر النيـة ثم، هل تـراني أتركك دون أن أدعـو لك؟!.

- يـا أخـي صحيـح، لكننـي لا أسـتبدل ابتسـامة أخـي الـذي قضيـتُ حاجتـه بمـال الدنيـا.

- لحظـة، لحظـة، لا تضيعـاني معكـما، لم تجبنـي يـا سـمارة عـن سـؤالي الأول، بمـاذا كنـت تفكـر، هيـا قـلُ لنـا ولا تـراوغ؟

- بالسيناريوهات التي يمكن أن تحدث في حال...

- قطـع حَمُكـة حديثـه: سـمارة، دعـك مـن الهـروب، لقـد وعدتنـي وعليـك بالإيفـاء.

- اسـمع أيهـا الفتـى الغر، فلسـطين، البندقيـة، أمي، وأمـل لا يغادرنني مطلقـاً، ولا يمكننـي فصـل الواحـدة عـن الأخـرى، فمـن تخـلى عـن إحداهـن، سـيفقد الأخريـات!.

- هنـا تدخـل عـلاء: أرجـو ألا تفهمني خطـأ، البندقية، فلسـطين وأمك، أتفـق معـك دون جـدال، لكـن أملُـك أمـرٌ ثابـت، مـع إعجـابي الكبـير بهـذه العلاقـة الرائعة.

- أخطـأت خطـأ كبـيراً، «فأمـل» بالنسـبة لي، صلـة الوصـل الأقـوى مـن بينهن .

- و هنا تفاجأ حَمُكة: وتقدم خطيبتك على أُمَك؟!

- ألم أقـل إنـك لا تـزال غِـرّاً؟ أيهـا العبقـري، لـولا الحـب للفطـرة التـي زرعهـا اللـه في أنفسـنا، لما كان الحب للوطن والديـار، صحيح بأن الأُمَ لا تخضـع للجـدال، لكـن لولا فهمي لمفهـوم عمارة الأرض بالعـدل والخير، الـذي أمرنـا اللـه _عز وجـل_، لما أحببـت أمل!

- لا أفهم....قالها حَمُكة وهو يحكُ رأسه.

- حتـى نعمَـر أرضنـا، يجـب أن تكون نظيفة من الـشر، وحتى نصل إلى ذلـك يجـب أن تتوفر لدينا أسـباب القوة، وأهمهـا الأسرة الصالحة التي تبـدأ منـي ومـن خطيبتـي المؤمنـة التـي تدفعنـي إلى القتال مـن أجلها وأجـل بلـدي وديني وأمـي، أفهمت الآن؟

- متـى سـنفطر، ألم يحـن موعـد آذان المغـرب؟! أحـضروا لي الدجـاج المُتمَّـر.

- ضحـك ثلاثتهـم عـلى حَمُكـة وهروبـه مـن فلسـفة سـمارة للحب، ثم عـاد عـلاء إلى حَمُكـة: أعجبتني عبـارة الدجـاج المُتمّر.

- طبعـاً، مـا عليـك سـوى تخيـل الدجـاج وأنـت تتنـاول حبـات التمـر وبذلـك تـأكل الدجـاج المُتمّـر، سجل بـراءة الاخـتراع باسـمي، حَمُكـة رمضـان صاحـب نظريـة الدجـاج المُتمّـر.

- قال إبراهيم: على الأقل أعظم اسمك وليس لقبك، محمد رمضان

«لستُ حمقاء»

و أخـيراً ضحـك النفـقُ وانفرجـت أسـاريره فصاحبـه وحافـره بأظافـره، أعطـى إشـارة القـدوم، فاندفع الرجـالُ الأربعـة إلى أخيهم أسـفل البئّر، يعانقونـه، يؤنبونـه عـلى الغيـاب: على رسـلكم أنا أمامكـم لم يحدث لي شيء.

- كان عماد منفعلاً من شدة خوف إخوانه عليه.

- على الأقل، كان عليك طمأنتنا!

- ألم تفهموا من وعاء الماء الذي أحضرته أمي إلى الغرفة أني بخير؟

- فأجابـه عـلاء: ظننـا أنـه المجاهـد المسـؤول عـن متابعـة النفـق حـال حـدوث شيء معـك، ومـع ذلـك حمـداً للـه عـلى سـلامتك، لقـد أقلقتَنا علي .

- لقـد كان الأمـر فعـلاً خطـيراً، وأحسـب أن اللـه _عـز وجـل_ كتب لي ولأهـلي حيـاة جديدة.

- يا لطيف، ما الذي حدث، هل كنت في البيت أثناء استهدافه؟ سأل سمارة.

- كنت مع أمي في الطابق الأرضي والحمد لله لم نُصب بأذى.

- والوالدة، هل حدث لها مكروه؟ قال إبراهيم متأثراً.

- لو حدث لها سوء – لا سمح الله – هل كانت ستقوى على إحضار الماء لكم؟

- أتعرف، خشيت ألا أراك فأعيش بتأنيب الضمير أني لم أحدثك عن المشروع الذي رفض علاء المشاركة فيه.

- أتعرف، حدث أمر غريب، ففي قمة انشغالي مع وحدة المرُاقبة والرصد الحدودية، كنت أفكر بذلك، والليلة ستحدثني القصة، لأنني سأبقى هنا!

- لفتَ كلام عماد انتباه المقاتلين، فسارعه علاء بالسؤال: هل طرأ جديد؟!

- الأهالي جميعًا غادروا المنطقة، القصف العشوائي للبيوت المأهولة وسقوط الشهداء والجرحى دفعهم إلى ترك كل شيء، الطائرات والمدفعية تقصف بصورة جنونية غير مسبوقة ويبدو أننا سنشهد ليلة ساخنة جداً.

- و هنا تدخل سمارة: ووالدتك، أين هي الآن؟

- صمت عماد، غابت حيويته وظهر الطفل في وجهه، فأضاء الأربعةُ مصابيحهم، خوفهمُ، خشيتهمُ من أضاء النور، هي أمُهم أيضاً، شربوا من يديها، أكلوا من طعامها، سكنوا بيتها، وقدّمت ولدها خادماً لهم، هكذا كانت تظن: تكلم يا رجل لقد أفزعتنا؟

- لقد تركتها تذهب لوحدها إلى داخل البلدة، والصواريخ تلاحق الناس في الشوارع، لا أعلم ماذا حدث معها، هل وصلت أم لا؟، أنا المخطئ، كان يجب أن أرغمها على المغادرة باكراً، لكنها لم توافق، أصرّت على البقاء، قالت لي: دعني أموت في بيتي، خيرٌ لي من الموت قهراً في مدارس وكالة الغوث.

- و لما جاء الليل وتعاظم الدمار من حولنا، طلبتْ مني تركها والمغادرة فرفضتُ ذلك، حتى أذعنت لرجائي وتوسلي إليها أن تذهب عند أقاربنا داخل البلدة، وعندما أوصلتها إلى بداية الطريق الموحش والمخيف قلت لها: أستودعك الله يا أمي.

- فأمسكت بيدي، وتحدثت أمومتها: ألن تأتي معي يا ولدي؟

- سألحق بك إن شاء الله، هيا يا أمي بسرعة قبل أن تكشفنا الطائرات.

- فسألتني وهي مُتيقنة: هل أنت مع رجال النفق؟.

- كانت تعلم أنني لست بالذي يكتفي بتقديم المساعدة وحسب، لكنها كانت تُخفي حقيقة شعورها، فأجبتها: لا تقلقي يا أمي، توكلي على الله، فضمتني إلى صدرها، شعرت أنها تريد إخفائي بين ضلوعها، لا أخفي أن قلبي انتقل إلى صدرها، هي أمي، حبيبتي، صديقتي رفيقة الدرب التي أرضعتني حليب العزة، فانحنيت أقبل يدها ألثمها حتى تبقى رائحتها في فمي ووجهي، ثم ودعتها بسرعة بعد أن أوصتني ألا أنسى وعاء الماء الثاني كي أحضره لكم، أنا الآن، لا أدري هل وصلت أم لا هل حدث لها مكروه أم لا؟

- فقاطعه علاء: يا أخي دعك من التشاؤم، وسلم أمرك لله.

- فقط أريد التأكد من وصولها؟

- يا عماد، عندما يحين القدر، لن يمنعه شيء، قبل يومين انفجر الصاروخ فوق رأسيكما ولم ينتهِ الأجل، فلا تذهب بعيداً، ومَن هو الآمن من أهلنا في قطاع غزة؟-

- صحيح، أريد الذهاب لإحضار سلاحي وجعبة الذخيرة.

- لماذا لم تحضرها معك، كيف تنسى سلاحك؟

- لم أنسه، ولكن، فضلتُ إحضار مَاء الشرب أولاً لعلمي بنفاده عندكم وثم العودة لإحضار السلاح حتى لا ألَفتَ الانتباه عندما أحملهما معاً.

- أحسـنت، فالماء لا يقـل أهميـة عن السـلاح ولكـن انتظر قليـلاً ريثما يهـدأ القصف.

- كان النفـق يهتـز مـن شـدة القصـف، والأصـواتُ توحـي إلى عاصفـة مـن الجنـون تحدثُهـا صواريـخ العـالم المتحـضرِّ، الديمقراطـي الليـبرالي، الحـارس لحقـوق الإنسـان، ممهـورٌ عليهـا: صُنـع في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، والبعـض الآخـر في أوروبـا، لحم الفلسـطيني تحرقه صواريخ السياسـة القـذرة: يسـأل المتغابـون في العـالم المتحـضر: لمـاذا يَشـتمُنا هـؤلاء العرب؟

- فـيرد عليهـم عجـوزٌ ضريـر من مدينة طولكرم شـمال الضفـة الغربية، عـاصر حـرب حزيـران عـام 1967عندمـا احتـل الصهاينـةُ بقيـة الأرض الفلسـطينية: لأن وقاحتكـم ليـس لهـا حـدود، بريطانيا خانـت انتدابها لفلسـطين وسـهلت تسـليمها للحركـة الصهيونيـة التـي حصلـت منهـا عـلى وعـد بإقامـة وطـن قومـي لليهـود عـلى أرضنـا، منحهـا إيـاه آرثـر بلفـور، وزيـر خارجيتها آنذاك، ولما انسـحبت عام 1948 تركت سـلاحها للعصابـات الصهيونيـة التـي ذبحـت أطفالنـا ونسـاءنا وشـيوخنا، أمـا فرنسـا الثـورة، فقد حرقتنا صواريخ طائراتهـا «الميراج» في حرب حزيران والطيـار الغاصـب يـضرب باسـم فرنسـا، الحريـة والأخـوة والعدالـة، حينهـا، كنـت فرحـاً لحصـولي عـلى منحـة الدراسـة في جامعـة بـيروت، أحلـم ببلـد الأرز وجمالهـا، وأراهـا بوابـة العـالم الحـر، ولكـن!! صاروخ المـيراج الفرنسـية، أطفـأ النـورَ في عينـيّ عندمـا أصـاب منزلنـا فـمات الحلـم وتوقـف العـالم عـن رؤيـة الحقيقـة، ومن يومهـا، يطـوفُ العالم

على أجسادنا بسلاحه وحُمقه ونفاقه، ثم يسألُ الرسميون والأغبياء: لماذا هذه الكراهية تجاهنا؟ فترد عليهم شابةٌ جميلة جاءت من أصلابهم، تحملُ حقيقة الحرية والعدالة والأخوة الإنسانية، قائلة: أنا «راشيل كوري»، سحقتني دبابة صهيونية صُنعت في بلدي المُتحضر «أمريكا» كان ذنبي الوحيد أني لستُ حمقاء، فلم يشفع لي جواز سفري الأمريكي وأنا أدافع عن شرف أمريكا وأوروبا الذي لطخته « (إسرائيل) « بالعار وهي تقتل الأطفال وتهدم البيوت وتقتلع الأشجار، فاعتلت جسدي الأشقر تخيل حماقة من يحكمون وطني وهم يوقعون على صك موتي.

«العدوان البري»

- التاسعة مساءً، غرفة العمليات تتصل: لقد بدأ العدوان البري توكلوا على الله واستعدوا للقتال.

- لم يعد هناك مكان للكلام، تحول النفقُ الصغير بحجمه حدَّ القبر الكبير بأهله العظماء، إلى شعلة من الحماس، يتقدم عماد أقصى النفق ناحية الشمال، ويبدأ بفتح العين المغلقة للنفق، مستعيناً بخنجره وتمتمات لسانه المستعينُة بالله _عز وجل_، حيث كانت طبقة التراب رقيقة جداً لم يستغرق إزالتها أكثر من عشر دقائق، وبذلك أصبح للمقاتلين فتحة ثانية يسمونها العين تخرج من جانب السور الخلفي للغرفة الثالثة التي قفزوا عنها يوم مقدمهم، ويبلغ عرضها 60سم وارتفاعها لا يتجاوز متراً وعشرين سم، ولقد تعمد مهندسو النفق أن تكون متينة من الإسمنت المسلح، للدور المركزي الذي ستشغله لحظة الصفر، وتمتاز بأنها منخفضة بالقياس مع فتحة البئر التي يبلغ طولها مترين ونصف، نظراً لأنها تخرج خلف جدار الغرفة، لذلك يبدأ الطريق الواصل إليها من جهة البئّر بالصعود رويداً، رويدًا طيلة الثمانية أمتار.

- في الوقت ذاته، كان علاء وسمارة وإبراهيم يرتدون جعبهم ويعمرون بنادق الكلاشينكوف خاصتهم، أما حَمُكة، فبدأ بإخراج القذائف المتنوعة الخاصة بقاذف الآر- بي - جي من الأكياس الحافظة ويعمّر قاذفة بإحداهن، لحظتها، وعلى وقع الضجيج الذي بدأت تحدثه دبابات القوات الغازية، بدأ علاء بمهمته الأساسية: سمارة، جهز العبوات الخمس بسرعة.

- كان سمارة من سلاح الهندسة في النخبة لإبداعه في هذا المجال، حيث كان عليه أن يُخرج العبوات الناسفة من الأغلفة الحافظة لها لتكون جاهزة للاستخدام، ثم وجه كلامه لعماد الذي كان أيضاً من سلاح الهندسة، لكنه اللحظة سيقوم بمهمة أخرى: خذ مكانك وأبلغنا بالتطورات.

- صعد عماد من البئر لرصد تحركات العدو حال قدومه من ناحية الشرق، وقد أطل برأسه من فتحة البئّر المحاذية لباب الغرفة، في ذلك الوقت، كان سمارة يأخذ مكان الرصد في العين الشمالية يرقب التطورات، يتقدم علاء أسفل البئّر: أعطني صورة الوضع، أين هذه الأصوات؟!

- يجيب عماد الذي نزل بسرعة وهدوء: الدبابات والآليات تتجمع في مكان ليس ببعيد.

- في أي اتجاه، هل يمكنك تحديد موقعها؟

- لا لا أستطيع المشاهدة، إنما أقدّر أنها ليست بعيدة عنا.

- ارجع إلى مكانك وانتبه جيداً وأبلغنا بأي تطور، هيا توكل على الله.

- لحظتها كان إبراهيم يتلقى اتصالاً من غرفة العمليات ويعطي تقريراً أولياً عن الوضع، حيث أعطى الحديث لعلاء الذي سأل: ما هي الأوضاع؟!

- قوات العدو التفت حول « القرارة» وعادت إليكم الآن بعد أن انقسمت إلى ثلاث مجموعات الأولى ذهبت باتجاه قرية خزاعة والثانية إلى قرية الزنَّة والثالثة عندكم.

- أهلاً وسهلاً، نحن متشوقون للقائهم.

- في تلك اللحظات الساخنة، حضرت دبابة مسرعة ووقفت قُبالة الغرفة الأولى على مسافة عشرين متراً وبدأت بقصف بيت عماد وبيوت أقاربه، الأمر الذي دفع عماد إلى النزول فوراً: دبابة تقوم بعملية تطهير للمباني، تدمر جميع المنازل.

- وضع علاء يده على كتف عماد: احتسب عند الله.

- هذه البيوت رخيصة في سبيل الله ولا تساوي عندي دمعة من عين طفل فلسطيني.

- سمارة يعطي تقريرًا سريعًا: استهدفوا غرفة من القصب تبعد عنا عشرة أمتار.

- هي للمزارعين، يقول عماد.

- عد للرصد وانتبه جيداً لنفسك.

- كان الليل يعيق الرؤية لكنه لا يعيق الإحساس بالعدو وقُربه من المجاهدين: عماد، اصعد وانظر أين تتمركز الدبابة؟

- حَمُكة، جهز التاندوم قذيفة «أر- بي -جي من رأسين متفجرين ضد الدروع».

- شدة القصف وارتدادات الصوت، أدت إلى تطاير الباب والنافذة في غرفة البئر، إضافة إلى قطعة الخشب التي كانت تغطي الفتحة، ومع ذلك استطاع عماد تحديد موقع الدبابة والنزول: عشرون متراً قبالة الغرفة الأولى.

- اجتمع الخمسة بسرعة، فتقدم علاء بالحديث: أرى أن يضربها حمكة أولاً ثم...

- قاطعه عماد: قبل أن تكمل، الرؤية صعبة وهناك عائق سلكي.

- وهنا توجه علاء لحَمُكة، ما رأيك؟

- حتى أرى نقاط الضعف في الدبابة يجب أن تكون الرؤية واضحة، ولا يكون هناك عوائق أمام القذيفة، كما تعلمون لا يوجد معي منظار ليلي.

- وهنا تدخل سمارة: عمل فدائي، سأزحف نحو الدبابة بعبوة «شواظ» بعدها يتم الإطباق والإجهاز على الهدف.

- وافق الجميع بسرعة نظراً لضيق الوقت ووجود هدف مُتاح يمكن القضاء عليه بسهولة، وجهتها، فعلى سمارة الوصول للدبابة وإلصاق العبوة الناسفة من نوع شواظ محلية الصنع التي تزن 15كغم، في نقطة ضعف مركزية كالباب الخلفي أو أسفل الدبابة، وتفجير العبوة بعد نزع صمام الأمان الذي يتيح لسمارة 4 ثوان لاتخاذ ساتر، ثم يجري الانقضاض على الهدف من جانب عماد وعلاء بهدف التطهير، في الوقت الذي يؤمن فيه حَمُكة وإبراهيم الحماية للهجوم.

- كانت قذائف الدبابة التي تنطلق باتجاه المباني وأهداف لا يمكن للمقاتلين تحديد وجهتها، تهز النفق، تصم الآذان من شدتها وتحدث غباراً في محيطها يتسلل أسفل الأرض بعد أن أصبح النفق مفتوحاً من جهتين، ولكن!! المقاتلون الأشداء وبعضهم يلتقي للمرة الأولى وجهاً لوجه مع العدو، يترقبون وأنظارهم لأعلى تحكي قصة تحد عجيبة، قبضاتهم التي تحتضن السلاح، لم توقف عمل ألسنتهم وهي تدعو الله أن يظفروا بالدبابة ومن فيها، وكلما زادت وطأت القصف والحمم التي تقذفها آلة الحرب اللعينة هذه، كانت عزائم الرجال

الخمسة تشتد وتوشك أن تحرق الدبابة من بعيد، ولمّا هدأ الوضع وبدا أنها توقفت عن الرمي! صعد عماد: فحص موقعها مجدداً واستطاع التأكد أنها لا تزال في مكانها، فنزل بسرعة وأخبر علاء الذي بدوره أعطى إشارة «الله أكبر» تتنقل بين الخمسة، تقع في صدورهم كالسحر، لا تقيم وزناً لآلة الموت التي تزن عشرات الأطنان من البغض والكراهية، فالله أكبر منها، وأكبر من صانعها الذي أرادها إلهًا يحُيي ويميت، تحرّكَ سمارة صعوداً من العين الشمالية المحمية بسواتر طبيعية فوق الأرض تجعل من المستحيل كشف العين، وفي اللحظة التي كان فيها يخطو للصعود!! صرخ عماد: إيقاف المهمة، إيقاف المهمة!

- تزامن طلبهُ مع صوت ضجيج كبير، فسارعه علاء: ماذا حدث؟

- تحركت الدبابة باتجاه الجنوب.

- فعاد سمارة بهدوء، وضيقٌ ظاهرٌ على وجهه ولسانه: حسبنا الله ونعم الوكيل.

- فسارعه إبراهيم بالقول: لعله خير.

- ألا يجوز أننا تأخرنا قليلاً على التنفيذ.

- فأجابه علاء: أبداً، لقد اتبعنا الإجراءات السليمة.

- لكن عماد كان أشد المتضايقين: ماذا لو انسحب الصهاينة الآن،

ماذا سيكون موقفنا أمام أنفسنا وإخواننا؟ لقد كانت هدفاً سهلاً وضيعناه من بين أيدينا.

- فقال علاء: لا تستعجلوا، كل شيء قضاء وقدر، لعل الله يُخبئ لنا هدفاً أفضل.

- و بعد صمت بسيط والأيدي على الزناد، عاد سمارة لعقليته العسكرية: هذه الدبابة كانت طُعمًا، جاءت حتى تغرينا للخروج لها، ولما تأكدت من خلو المكان، غادرت.

- ألم أقل لك لعله خْير.... همس إبراهيم وهو يبتسم.

- يا إلهي، ما تقوله صحيح، ومع ذلك وددت لو أقسمها نصفين.

- كان حَمُكة في قمة انفعاله، ثم قال علاء: فلنعد للمراقبة والحديث بالهمس للضرورة القصوى فقط.

- استطاع سمارة التقدير من خلال رصده عبر العين، أن الدبابة تمركزت على مسافة 100م جنوب النفق وقد أعاق رؤيتها بعض أشجار الزيتون والمنازل، وبات على المقاتلين انتظار هدف جديد لا يعرفون طبيعته، لكن ذلك لا يشكل لديهم أي مشكلة، فقد تدربوا على التعامل مع كل الأهداف المتحركة والثابتة ولديهم من الوسائل القتالية الكافية لذلك، غير أن روحهم القتالية واستعدادهم النفسي، أبرز ما يميزهم عن أي مقاتل في العالم حتى ولو كانوا يعيشون

منذ تسعة أيام ويزيد في ظروف صعبة للغاية تحت الأرض، في الوقت ذاته، كانت القوات الغازية بكل ما تملك من تكنولوجيا وعتاد عسكري واستخبارات، تجهل كثيراً مما ينتظرها فوق الأرض وتحتها، معتمدة في هجومها على قوة النيران والتدمير المنهجي لكل الأبنية والمزارع التي تواجهها، حيث أصبحت قوة الطيران محدودة جداً الأمر الذي يلعب لصالح كمائن المقاومة على الأرض والتي كانت مزروعة بالموت الذي تدركه قيادة جيش العدو واستخباراتها، لكن حماقة القادة السياسية ووقوعها تحت التجاذبات الانتخابية والتي غالباً ما يدفع ثمنها الشعب الفلسطيني من دمه، دفعت بعشرات الآلاف من الجنود إلى الاندفاع إلى حواشي القطاع والمناطق المحاذية للحدود، وفي تلك الساعات الأولى من الهجوم، والنيران التي لم تتوقف لحظة واحدة، لم يكن ممكناً للزمرة في النفق، معرفة ما يحدث بالضبط ولكن!! كانوا على قناعة تامة أن الصهاينة وقعوا في الكمين الأكبر عندما دخلوا أطراف القطاع براً، يسأل حَمُكة بصوت منخفض جداً وهو يحتضن قاذف ال-أر- بي - جي كطفلة: تُرى ما الذي يحدث الآن؟

- فيجيبه عماد الأكثر دراية بالمناطق الحدودية: يلعَنُ الجنودُ الساعة التي ولدتهم، أمهاتهم فيها، الآن فقط، سيمرون بجحيم لن ينسوه مُطلقاً وستسجله صحائفهم السوداء!!.

- المهم، أن يكون لنا شرف المشاركة في ذلك، قال سمارة الذي كان يرابط أسفل العين.

- إذا قُدرَّ اللهُ لنا العيش، سنرى كيف ابتلعت الأرض جنودهم وضباطهم، المهم، كثفوا الدعاء لإخوانكم في الكمائن المتقدمة وخطوط الدفاع جميعها.

- وبينما عماد يتحدث، طلب سمارة الصمت التام، حيث أطلَّ برأسه من العين بعد أن أزاح قطعة البلاستيك التمويهية، ليتفحص الوضع بعد سماعه حركة في الأعلى، وبعد لحظات نزل: لا شيء حيوان مسكين مفزوع من صوت الانفجارات.

- بقي الخمسة في حال استعداد للقتال، يترقبون هدفاً جديداً للتعامل معه، وأصبحت الحراسة جماعية بشرط استيقاظ الجميع حال المراقبة من فتحة البئر أو العين، استمر ذلك حتى السحور، «ما قبل الفجر» ولم تأت أي قوة للمكان، فتناول المقاتلون حبات التمر السبع المخصصة لكل واحد منهم ثم صلوا الفجر بصورة فردية، وأصبح عليهم من الآن، الأكل والشرب وقضاء الحاجة في نفس المكان، وهذه الأخيرة كانت الأصعب على النفس بعد أن تدبروا أمرها سابقاً في غرفة الطيور، أما الآن فسيستخدمون العُلب والمخلفات البلاستيكية التي كانوا يحفظون بها العبوات الناسفة، لقضاء حاجتهم، وقبل أن يستلم علاء وعماد الحراسة كي يتسنى للبقية أخد قسط من الراحة، تم تأمين المكان قال علاء: يجب أن نحمي فتحات النفق.

- سأل سمارة: ماذا تقترح؟

- تفخيخ المداخل «برعديتين» ما رأيكم؟!

- على بركة الله.

- قال الجميع موافقاً فباشر سمارة وعماد بتجهيز العبوتين المضادتين للأفراد من نوع «رعدية» محلية الصنع شديدة الانفجار والتأثير، والتي تتضمن الواحدة منها مئات الشظايا، حيث وضع واحدة قرب فتحة البئر داخل الغرفة، خلف كيس كبير من طعام الحيوانات وربطها بسلك كهربائي يتم التحكم به من داخل النفق، وذات الأمر جرى في العين الثانية وقد تم التمويه على العبوة ببعض الأمور الملقاة وغير المُثيرة للانتباه.

- كان سمارة وإبراهيم وحَمُكة يظنون بأنهم سيرتاحون، غير أن عينهم لم تنم مطلقاً حتى وإن ارتاحت أجسادهم قليلاً بعد أن أرهقتها ليلة، الأمس، تمدد ثلاثتهم على أرضية النفق الضّيقة، لكن أجسادهم الرياضية ساعدتهم بالتغلب على ذلك غير أن طول الواحد فيهم والذي لا يقل عن 180سم فرض عليهم أن تصل أقدام بعضهم عند رأس البعض الآخر نظراً لشغل الأسلحة والعبوات الجاهزة للاستخدام، حيّزاً من المكان.

المظليون في مواجهة النُخبة

صباح الجمعة، الثامن عشر من تموز، اليوم العاشر للكمين، الساعة السادسة والنصف صباحاً.

- كان عماد في موقع الرصد، عندما نزل بسرعة: خمسة جنود يتجهون نحونا من جهة الجنوب – جهز المجاهدون أنفسهم: أعطنا بعض التفاصيل عنهم؟

- يسيرون بهدوء وطمأنينة ويتبادلون الحديث فيما بينهم!

- فسأله سمارة: نوع السلاح؟

- يحملون بنادق m16.

- ثم قال علاء: إذا دخلوا الغرفة، يفجر عماد العبوة، ثم يبدأ الإطباق والتطهير، سمارة، ارجع إلى العين وراقب بحذر.

- كانت الثواني القليلة التي أعقبت الحديث، الأكثر طولاً لدى

الخمسـة الذيـن انتظـروا هـذا اللقـاء وجهـاً لوجـه مـع نخُبـة المحتـل، حيـث علمـوا مـن غرفـة العمليـات، أن القـوات الخاصـة التـي نزلـت في منطقتهـم مـن المظليـين التابعـين لوحـدة جفعـاتي الشـهيرة في جيش الاحتـلال.

- مضـت الدقيقـة الأولى والثانيـة ولم يظهـر أحـد، فجـاء الفـرج مـن ناحيـة سـمارة: تجـاوزوا الغـرف وذهبـوا لغرفـة مصنوعـة مـن القـش، وجلسـوا هنـاك.

- فسأله عماد: تبعد عشرين متراً تقريباً؟

- بالضبط.

- إنهم في غاية الطمأنينة ومكانهم غير محمي، هيا لنفاجئهم.

- قـال عـلاء: يشـغل سـمارة عبوة الأفراد بعـد توجيهها إليهـم ثم حصل الإطباق عـلى الهدف.

- وسأقوم أنا بتأمينكم عبر التعامل مع أي هدف غريب.

- قـال حَمُكـة الـذي سـارع لتغيـير القذيفـة بقذيفـة أر- بي - جي ضد الأفراد تتناسـب وطبيعـة الهدف.

- وفي تلـك اللحظـة تواصـل علاء مع غرفـة العمليات وإبلاغهـا بالمهمة: سننفذ الآن.

- امنحونا دقيقة واحدة فقط.

- رد ضابط الاتصال.

- كان سمارة ينتظر والمقاتلون يحثون علاء لإنهاء المكالمة بسرعة، فالنخُبة توضع في مواقع القتال الحساسة وتتصرف وفق ظروفها، فتدريبها قائم على ذلك، لكنها في ذات الوقت تخضع لتوجيه القيادة ما دامت على تواصل معها، فربما كانت الحسابات تقتضي أمراً تجهله النخبة في هذا الكمين، لم يطل الانتظار: السلام عليكم، هل أنتم متأكدون من الهدف؟

- لم يكن صوته غريباً على علاء: بالتأكيد ونسبة القضاء على الهدف مُحققة.

- توكلوا على الله، واجتمعوا في الأرض، فإن لقي أحدُنا الله قبل أخيه، شفع له يوم القيامة أسألُ الله أن يوفقكم، أبلغ سلامي للإخوة عندك.

- قائد اللواء يهديكم سلامًا، سمارة، توكل على الله.

- لكن سمارة لم يُجب ولم يتحرك!!.

- فوكزهُ علاء من ظهره: ما بك يا رجل؟

- الجنود يغادرون باتجاه الجنوب، وهم ثمانية وليس خمسة و.....

- ماذا أيضاً.

- كان الضيق واضحاً على علاء.

- بقي جندي واحد في المكان.

- الغ المهمة وانزل.

- نـزل سـمارة وأغلـق العين خلفـه، لكنه هذه المرة لم يكـن كليلة أمس، فقـد أدركَ أن عـدم وضـوح الهـدف بعـد بقـاء الجنـدي داخـل الغرفة، كان سـيعقد الهجـوم حـال حدوثـه، قـال: أعلـم أنكـم مسـتاؤون ولكن مـا حـدث جيد!

- يـا رجـل أضعنـا ثمانيـة جنـود من بـين أيدينا وتقـول لنا جيـد؟! تلكما الدقيقتـان اللتـان أضعناهـما مـع غرفـة العمليـات، وليـس أحـد غيرها هـي السـبب، حتـى لـو كان المتكلم أحـب النـاس إلينا.

- يـا أخـي الحبيـب نحـن لا نـرى جميـع الصـورة، بقـاء الجنـدي وحده يُـؤشر إلى قـوات بجانبـه لا نراهـا وهـذا ليـس في صالحنـا، أمـا الـشيء الأهـم، أن عنـصر الوقـت يعمـل بجانبنـا فهـم يتحركـون بطمأنينـة ومعنـى ذلـك أنهـم سـلموا بخلـو المـكان مـن المجاهديـن الأمـر الـذي سـيمنحنا المغـادرة المريحـة والجيـدة.

- لذلك.

- استطرد إبراهيم «أناة القط ووثبة الأسد» كما قال سيدنا خالد بن الوليد _رضي الله عنه_.

- فقال عماد: _حسبناً الله ونعم الوكيل_، الله يعلم أننا ما خرجنا إلا جهاداً في سبيله ودفاعاً عن أهلنا وأرضنا، فلن يُضيّعنا أبداً ولن يذهب تعبُنا هباءً منثورًا، فاصبروا أيها الإخوة، واسألوه أن يدفع عن أهلنا البلاء ويرزقنا الشهادة بعد أن نمرّغ أُنوف المحتلين بالتراب.

- كان على خمستهم التعايش مع واقعهم الجديد، الرباط تحت الأرض بانتظار اللحظة المناسبة، وبينما العدو فوق الأرض لا يدرون ماذا يفعل، لكنهم على ثقة أن رفاقهم في النخُبة يحاربون ببسالة منقطعة النظير ويصنعون الملحمة القتالية التي سَتحِدُثُ الفرقَ في تاريخ المواجهة مع العدو، فقد تحملت وحدات النخُبة مهمة التصدي للعدو في الخطوط الأمامية وأعدت لذلك عدتها، داحضةً كل النظريات الجيوإستراتيجية التي تعتبر الشريط الساحلي الضيق الواقع عليه قطاع غزة، ساقطاً من الناحية العسكرية ولا يمكن لقوة مقاومة الاحتفاظ به فضلاً عن عدم قدرتها التحصن داخله، لهذا عمدت ترسانة العدو المختلفة على تدمير كل شيء في المنطقة الحدودية تمهيداً للاجتياح، ولم تدرك بعد رغم علمها ببعض تكتيكات المقاومة التي بدأت تعتمد على الأنفاق، حجم المقاومة التي تنتظُرها من الناحية النوعية، وقد تجاهلت عمداً أو دون عمد اطلاع قواتها المقُتحمة حواشي غزة، على أهم مركبات المقاتل الفلسطيني الذي سيواجهونه، مكتفيةً بتحذيرها من الأسر وأن يموت الجندي قبل أن

يقـع في أيـدي المقاومـة وإذا حصل وتم أسر أحد الجنـود، ألا يتم التردد في قتلـه، فجنـدي ميـت خـيرٌ مـن جنـدي أسـير يمنـح المقاومـة مشـهد نـصر للحـرب، ويحـرر الأسرى الفلسـطينيين المخطوفـين لديـه.

- مضـت سـاعات الصبـاح والظهـيرة والإصبـع عـلى الزنـاد يتنـاوب إبراهيـم وعـماد الأكـثر نحافـة في الجسـد، بالمراقبـة مـن البـئر، حيـث يضطـر الواحـد فيهـما وهـو يتسـلق برشـاقة من البـئر مسـتخدماً يديه وقدميـه، أن يخلـع جُعبتـه حتـى لا تُصـدر صوتـاً ولا تعيـق صعوبـة، بينـما يواظـبُ سـمارة على عينـه، وبين هـذا وذاك، ترتفع وتـيرة الصفاء الروحـي واسـتحضار المعيَّـة الإلهيـة، فالنفـق هـذا، يحمـل بـين جنباتـه أمريْـن مُتضاديْـن لكنهـما غـير متناقضـيْن!!، الضعفُ المـادي في مواجهة القـوة الجـرارة التـي أحضرت معها كل وسـائل البطـش العصرية، وقوة الإرادة والإيمـان، المرتبطـة بالخالـق العظيـم _عـز وجـل_، والأخـيرة هـذه نقطـةُ القـوة الأبـرز في المواجهـة الحاصلـة مـع العـدو، فكما قيل « للقـوي نُقطـةُ ضعـف وللضعيـف نقطـةُ قـوة، فـإذا اجتمعـت نقطة ضعـف القـوي مـع نقطـة قـوة الضعيـف، كانـت الغلبـة للضعيـف».

- يتجـاور إبراهيـم وعـماد جلوسـاً أسـفل البـئر، وقـد هـدأ النفـق قليلاً نظـراً لتوقـف آليـات العـدو عـن الحركـة بالقـرب مـن كمينهـم، عـلى الرغـم مـن تواصل صـوت المدافع والرصـاص والذي أصبـح أكثر وضوحاً بعـد فتـح العـين الجديـدة، وقـد أحـدث فتـح العـين مجرى هـواء قوي دبَّ الحيـاة في صـدور المقاتلـين الذين كانوا يكتفون بكميات مسـتحيلة مـن الأكسـجين، ينظـر عماد إلى وجه إبراهيـم مسـتفيداً مـن ضوء النهار

المتسلل من أعلى، ويبتسم فيهمس إبراهيم في أذنه: كان علينا أن نغيّر الموروث الخاطئ، عندما طرحنا الفكرة على مجموعة من الشباب وأولهم علاء، فالزواج لدى مجتمعنا، يخضع للأعراف التي تتنافى بعضها مع الدين والمنطق، لذا كان علينا الإقدام والتحدي!

- قاطعه عماد: أرجوك أن تدخل بالموضوع قبل أن يحدث شيء!

- ضحك إبراهيم وهو يرى لهفةَ عماد: عندما يموت الرجل في مجتمعنا، تصبح زوجته الأرملة، مهما بلغت من العمر، درجة ثانية من النساء لا يتزوجها إلاّ رجل متزوج لتكون امرأة ثانية له، أو عجوز يحتاج إلى خادمة في نهاية حياته، وفي أحسن الحالات، يتزوجها شقيق زوجها المتوفى حتى يحافظ على أولاد أخيه، أما هي، ذاتُها، إنسانيتهُا، مشاعرها كل ذلك لا يهم، لأنها ببساطة أرملة، حتى ولو كانت زوجة شهيد، سيبقى لقبها أرملة.

- هذا أمر موجود، ومن الصعب تغييره بسهولة، خاصة مع عقول أمهاتنا اللواتي يرفضن مجرد التفكير بخطبة الأرامل لأولادهن حتى ولو كُنَّ زوجات الشهداء الأعز والأكرم عند الله وعندنا.

- لكن بعض الشباب في حيّ الأمل، تحدوا ذلك بشرف، عندما تجاوزوا الأمر نفسياً وقرروا الثورة على الموروث الخاطئ والتقدم لخطبة أرامل الشهداء.

- و هل نجح ذلك؟

- ضحك إبراهيم وهو يتحفز للإجابة: كان الشباب يظنون أن معركتهم الوحيدة ستكون في إقناع أهلهم بالموافقة على ذلك حيث الديباجة المعهودة: انتظرنا حتى كبرتَ وأصبحتَ رجلاً لنزوجك أحسن البنات وتريد الزواج من أرملة؟! فلم يتوقف الأمر عند الأهل الذين سيخضعون في النهاية، إنما المفاجئة كانت، عند الأرامل!.

- رفع عماد حاجبيه مستغرباً، ثم استدركت تعابير وجهه: لم يردن الارتباط مجدداً وفاءً لأزواجهن الشهداء ولتربية أبنائهن، أليس كذلك؟!

- ما قلته صحيح لكنه ليس السبب الأهم، فهن متعلماتُ مثقفات ولا ينقصهن الوعي والإدراك، وواحدة فقط لديها طفلين.

- إذاً، ما الحكاية، أليس الشباب من المجاهدين وذوي الأخلاق العالية؟

- و أكثر من ذلك، معظمهم من المتعلمين، وأصحاب الدخل الشهري، لكنهن لم يشعرن بالنقص، وهن أمام هذا الإغراء، بل تصرفن وكأنهن ميزة، على الخاطب أن يأخذها بجدارة وليس من باب الشفقة، فلم ينقص إحداهن الجمال والأخلاق والمواصفات التي يتمناها كل شاب، لذا تم رفض بعض الشباب وقبول البعض الآخر.

- الله أكبر، هكذا هي المرأة الفلسطينية المؤمنة والمتعلمة، بالله عليك، حدثني عن إحداهن؟!

- تعرف الشهيد القسَّامي محمود بعلوشة؟

- ومـن لا يعرفـه، _رحمه الله_، استشـهد عام 2008م في حرب الفرقان، كان شـديد البأس على العدو.

- أرملتـه إحداهـن، ولم يمـضِ على زواجهـما في حينه أربعة أشـهر فقط، قبـل أن يلقـى الله شـهيداً، وليس هذا فحسـب!!

- ماذا أيضاً؟

- هي شقيقة الاستشهادي عبد المعطي العصَار.

- يا إلهي، هذه امرأة توزن بالذهب، لحظة، أنصت قليلاً.

- سـمع عماد أصوات حركة في الأعلى، فاسـتنفر الكمين، وصعد إبراهيم بهـدوء لاسـتجلاء الأمـر، حيث رفع رأسـه قليـلاً من فتحة البـئر المحاذية مبـاشرة لبـاب الغرفـة المـشُرّع وتمكـن مـن رؤيـة جـزء مـن المنطقـة الحدوديـة، وأثـاره مـا شـاهد، فنزل متأثـراً، فسـأله رجال النفـق: أبشر، هـل جـاء الصيد؟!

- البـط والدجـاج يـكاد يمـوت مـن العطـش، حيوانـات لا حـول لهـا ولا قـوة، محشـورة داخـل السـياج المغلق.

- فقـال عـماد: غفـر الله لي، لم أعرف أنني سـأنقطع عنهـا بهذه السرعة وإلا لكنـت زدت المـاء والطعام لها.

- انقطع الاتصال مع غرفة العمليات، الأمر الذي لم يشكل أهمية كبيرة لدى الكمين، فالأصل في الوحدات الخاصة التي تنفذ مهمات حساسة، أن تكون مؤهلة للتعامل مع كل الظروف دون الحاجة إلى الرجوع للقيادة، غير أن الرغبة بمعرفة تطورات المعركة وإنجازات المجاهدين، جعل الاتصال مهماً للمقاتلين في نفقهم المتقدم، أما الآن، لم يبق سوى الراديو لمتابعة مجريات المعركة وتسقُط الأخبار المختلفة والتي لا يمكن الحصول عليها إلا من خلال المراسلين الميدانيين الذين كانوا يجهلون حجم تأثيرهم في المعركة، وأهل الكمين يعتمدون على أخبارهم، وفي هذه المرة، ما بعد صلاة المغرب وتناول وجبة الإفطار بعد الصيام أول نهار في الحرب البريّة، كان عماد يُنصت بحذر شديد للراديو، ثم توجه لإخوانه هامساً: ألم أقل لكم؟

- فسأله علاء الذي كان يحُصي حبات التمر وكمية المياه المتبقية: ماذا حدث، هل هناك جديد؟

- العدو فقد عقله في خُزاعة والزنّة، يدمر المنازل بطريقة جنونية وهو داخل القريتين!

- هذا أمرٌ متوقع سياسة الهدم والدمار ليست غريبة على عدونا قال سمارة.

- اسمعوا جيداً، إذا كُتبت لنا الحياة، تذكروا ما أقول، لقد تكبَّد جيش الاحتلال خسائر فادحة ولا يمكن للعقل أن يفسر غير ذلك،

فخزاعة قرية معزولة جغرافياً عن محيطها ويسهل تطويقها من جميع الجهات لوقوعها في المنطقة الحدودية.

- يسأل حَمُكة: هل هناك نخُبة مثلنا؟!

- فيرد عليه علاء: جميع المناطق الحدودية مزروعة بوحدات النخُبة، وأعتقد مثل عماد، أن طبيعة التصرف العنيف للعدو يُعطي إشارات لما يحدث، ويكفي أننا نثقُ بقدرة وحداتنا هناك.

- اسمعوا، يقول سمارة، ما هو الشيء الأهم الذي يجعل العدو يفقد أعصابه؟!

- يجيب إبراهيم: قتل أعداد كبيرة من جنوده.

- لا، فهذا ليس العامل الأهم، فالجيش يضع في تخطيطه لأي حرب نسبة معينة من الخسائر بين جنوده!!.

- يستغرب أربعتهم، للوهلة الأولى من كلامه ثم يُكمل: بل أسر جندي واحد يشكل كارثة لدى العدو، وإن لم أخطئ.

- فالمجاهدون فعلوها والعدو لا يدري ماذا يفعل، فبدأ بتدمير كل شيء، مستخدماً عملية «هينباعل» التي تقضي بالقضاء على الجندي وآسريه معاً، حتى ولو كلّف ذلك استخدام القوة المُفرطة ضد المدنيين والممتلكات.

فلسفة العظماء!

- السبت، التاسع عشر من تموز، اليوم الحادي عشر للكمين.

- خرجت من البيت، تركتْ الزوج والأولاد وحفيدًا بدأ لتوه تمتمة اسمها، تبحث عن غائبها الأهم والأحب حتى يعود، تُنكر على نفسها فعل ذلك، وهي التي لم تمنعه يومًا عن أداء الواجب، فأصحابه يقاتلون الآن، يدكون مغتصبات العدو بالصواريخ، يخترقون مواقعه المحصنة لكنها خائفة، تطارد أخباره، تبحث عن رائحته في ثياب المقاتلين، لم تقنعها المحادثة الهاتفية قبل عدة أيام، حتى لو هدأ قلبها قليلاً، وسكن خوفها إلى حين، فالأمر قد اختلف الآن، تقول وهي تتفقد الجرحى: لا تلوموا صدري وعيني إن بكيت غيابه، هو الروح ومنتهاها، تطلبني دقات قلبه، أنفاسه، حبات عرقه، أعرف حبيبي، لقد أنجبته من جسدي ولا تستقيم له المعركة حتى ينالها مني: رضاكِ يا أمي.

- رضيتُ عنك يا ابن قلبي، أودعتُكَ السماء وخالقها، فاعطف عليّ

بنظـرةٍ مـن عينيـك، لا تتركنـي وحيدة مـع خوفي.

- أم عـلاء، طـراز فريـد مـن النسـاء، لا تعرفـه مراكـز حقـوق المـرأة في العـالم أو ربمـا لم تسـتطع فك شـيفرته الخاصـة، لذلك، تحيـد عنها نوبل وشـهادات التكريـم العالميـة وكل الشـهادات التـي تسُـبِّح بحمد الغرب وتسـجد لـه، هـي لا تعـرف كل ذلـك، ولم تهتـم يومـاً بـأن تبحـث عـن تقدير لما تراه جزءاً من طبيعتها الفلسـطينية، فميراث عطائها الإنسـاني الخالـص يسـكن صدرها، ومنـه تنطلق الروائـع، حليبها، حنانهـا، دفئها، يصنـع إنسـان التحريـر الـذي من أجلهـا يقاتل.

- خرجت أم علاء من المستشـفى وسـارت في الشـوارع تبحث عن نفي لمـا يختلـج صدرهـا مـن خوف، حتـى عثرت على أحـد القـادة الميدانيين للمقاومـة ممـن يعملـون مـع ولدهـا، فتفاجـأ لرؤيتهـا وأسرع نحوهـا: مـاذا تفعلـين هنـا يا خالتـي، الوضع خطـير والمعركة في أشـدها؟.

- قل لي يا والدي، هل رأيت علاء طمئني عليه؟.

- لم أره، لأنـه في مهمـة خاصـة، لكـن اطمئنـي يـا خالتـي فالحافـظ هو الله.

- أخبرني عن مكانه؟؟.

- تقـدم إليهـا قليـلاً وهو يمسـك جهاز الاتصال بيده والذي تتسـارع فيه الرسـائل المتعاقبة من ميدان المعركة وأم علاء تسـمع كل ذلك: يا أمي،

نحـن الآن في التحـام مبـاشر مـع القـوات البريـة وعـلاء قائـد مجموعـة خاصـة لا يمكننـا التواصـل معـه، لكـن أعـدك أن تطمئنـي عليـه، عندما تسـمح الظـروف بذلك، المهـم، أن تذهبي إلى البيت وتدعـي لنا بالنصر إن شـاء الله.

- لكـن أم عـلاء لم تكـن لحظتهـا تصغـي لكلامـه، وهـي ترخـي السـمع لأصـوات المقاتلـين الذيـن يبلغـون قادتهـم بنتائـج معاركهـم وأصـوات الرصـاص والانفجـارات تختلـط مـع الكلـمات: مـن جعفـر الطيـار، إلى ابـن الوقـاص، هـل تسـمعني أجـب؟؟

- من ابن الوقاص إلى جعفر الطيار أسمعك أرسل.

- تمـت العمليـة بنجـاح، منطقـة الريـان- محيـط صوفـا، عـادت النخُبة مـن ذات النفـق بسـلام، وتم قتل خمسـة جنـود من نقطـة صفر، ثلاثة في الـرأس واثنـان في مناطـق مختلفـة مـن الجسـم والحمد اللـه، حوّل.

- اسـتلمنا الرسـالة، كونـوا حذريـن وانتظـروا الأوامر لتنفيـذ مهمة رقم اثنـين _وفقكم اللـهـ_، انتهى.

- كانـت أم عـلاء تبحـث بـين ثنايـا الـترددات عـن صوتـه، وشـعور بالطمأنينـة يـسري في صدرهـا، لا تسـتطيع تفسـيره، عـلى الرغـم مـن عـدم عثورهـا عليـه، لكنهـا مرتاحـة ولا تـدري مبعـث ذلـك بالضبـط، أهـي البطولـة التي يسـطرها المجاهـدون الذين أصبحوا جيشـاً يحترف القتـال، أم العـزاء الجميـل بوجـود هـولاء الرجـال مـن رفقـة ولدهـا

والخجل من نفسها وهي التي دفعته إلى أن يكون في المقدمة دوماً، ومع ذلك يبقى الشوقُ لغائبها، فأصرت على القائد أن يجعلها تسمع قليلاً من أخبار المعارك وهي التي استضافت وأكرمت كثيراً ممن يخوضونها الآن، حيث انزوى بها جانباً وهو يقول مبتسماً: أعاننا الله على التوبيخ المؤكد.

- إذا تحدث معك أحد، أخبرني ولا عليك.

- وبعد أن أحدثت حكاياتُ المجاهدين وبطولتهم التوازن النفسي لديها، عادت إلى بيتها تاركة قلبها يرابط على الثغور، تحمي ظل المقاتلين.

- وفي النفق، لم تبرد الحماسة رغم تيار الهواء الذي أخرس حَرَّ تموز فكل الحواس نشطة، تبحث عن الغزاة الذين سكتوا عن المكان، ولم تستطع العزائم الصبر أكثر، يقتل الرجالَ ما يسمعونه كل لحظة في الراديو، عن إخوانهم الذين يلوكون الدبابات بأسنان قذائفهم، وهم ينتظرون في الكمين، وقد انقطع الاتصال فيقول عماد: دعونا نخرج للاستطلاع وتحديد مواقع العدو.

- فيسأله علاء: ما هو تصورك بالضبط؟.

- إذا استطعنا تحديد هدف لمهاجمته، سأتكفل بالانسحاب بكم من طريق جانبي بين الأشجار.

- هـذه مجازفـة، نحـن نعلـم أن قـوات الاحتـلال لا بـدُ أنهـا اتخـذت مواقـع مراقبـة وتحصينـات خاصـة في هـذه المناطـق الرخـوة.

- تدخـل سـمارة الـذي كان مُمـدًا على ظهـره: دعونا ننتظـر حتى الليل، ربمـا يسـعفنا مقـترح عـماد للخـروج مـن هـذا الوضـع وضرب مؤخـرة العدو.

- فيعلـق عـلاء: المؤخرة ليسـت هنا، فقد تكفل بهـا إخواننا في إنزالاتهم خلـف الخطـوط داخـل أراضينـا المحتلـة عـام ثمانيـة وأربعـين، ومئـات الأمتـار التـي تقدمها تعنـي أن كميننا في وسـطه الآن.

- المهـم يجـب أن تتحـرك، قبـل أن تنتهـي المعركة، فهذا العـدو لا يصبر عـلى الحـروب طويلـة الأمـد، وأخـشى أن يفوتنـا شرف الإثخـان بهـؤلاء الأوغاد.

- والآن الصمـت والهـدوء وعـدم الحديـث إلا للضرورة، أسـياد الموقف، أسـكتت طرقـاتُ يسـمعها أهـل النفـق لأول مـرة منـذ الاجتيـاح البري، أفـواه الشـباب، حيـث تقـدم سـمارة نحـو العـين لتقـصي الأمـر، وقـد تصاعـدت الطرقـات بصـورة أكـبر، مـما دفع سـمارة إلى النـزول بسرعة: العـدو يفتـح نوافـذ في جـدران البيـوت للقناصـة «طلاّقات».

- فقال عماد: لقد تقيدنا، لا نستطيع الحركة بعد الآن!.

- لا تقلق، لكل شيء نقطة ضعف، اسألوا الله أن يسوقهم إلينا.

- قال علاء: منذ اللحظة، يجب الالتزام التام بالصمت وعدم الإتيان بأي حركة أو صوت.

- يا إخوة، علينا بالدعاء، فعندما ينقطع الإنسان عن أسباب الدنيا، عليه أن يتوجه إلى خالق الأسباب، وبكل الأحوال، لقد خرجنا من أجل الله، دفاعاً عن عرضنا وأرضنا وحقٌّ على المولى أن يرزقنا إحدى الحسنيين إما النصر أو الشهادة، وما أجمل أن يكون الأخيرة في هذا الرمضان العظيم ولكن، بعد أن ندوس رؤوس الصهاينة بأحذيتنا، كانت كلمات سمارة الأخيرة، إيذاناً بفتح جبهة الدعاء على أعلى مستوياتها، على الرغم من أن الصلة بالله عز وجل لم تفارق الرجال الخمسة منذ البداية، لكنها ساعة شدة وانقطاع الصلة بعالم البشر، فلا بد من القوة العُظمى، والمدد الذي لا يدرك كنهه إلا العظماء والمُريدين، لكنّ عماد، المواطن الوحيد من بين الزُمرة القسّامية، والذي لم تلجأ عائلته تحت ضربات الصهاينة عام ثمانية وأربعين، كان لابتسامته رأي فيما قيل، وهو الممثل الأصيل لعائلات غزة المقاومة لكل غازٍ مرَّ من هنا: الحمد الله، الحمد الله، الحمد الله.

- ظل يرددها بصوتٍ مسموع.

- فسأله إبراهيم الذي اضطر لإضاءة مصباحه والنظر في وجهه وكان يجلس في الثلاثة أمتار أسفل البئر شرقاً: الحمد الله نعرفها، فلا يستحق الحمد على مكروهٍ سواه ولكن لماذا تبتسم؟!

- بالضبط، من أجل هذا أبتسم وأحمد الله، فما نحن فيه يستحق الابتسام له، وهنا عوامل النصر، أقسم أننا سننتصَر.

- تحمّسَ إبراهيم طالبًا منه الاستمرار بالحديث وأصحاب النفق يستمعون: أكمل.

- أفكر في العالم خارج نفقنا هذا وبلغته، قبرنا هذا، وما هي الكرامة في فلسفته، العزة، المروءة، الكبرياء، الشرف، الدين، الوطن، وحتى الإنسانية؟؟ كيف ينظر لكل هذا، وهو يؤثر سلامة الخانعين، يجلس في بيته ويقرأُ الفاتحةَ على ما سلف، أما نحن، فتحت الأرض، تتكدَّسُ أجسادُنا محشورةً بين التراب، نقضي حاجتنا في الأكياس، وبالكاد نستنشقُ الهواء، وأما عظامنا فتوشك أن تتكسر بفعل الانحناء المستمر وعدم الحركة ونكاد نفقد البصر بفعل الظلام، أهلنا لا نعرف عنهم شيئًا، ومع ذلك، ندعو الله بصدق، نبكيه، نتوسل إليه، نتضرع لجلاله، أن يسوقَ إلينا العدو ولا يحرمنا الإثخان فيه، والنيل من غطرسته وإجرامه، لذلك ينبغي أن نحمد الله ونبتسم، وصدق من قال» اطلب الموت توهب لك الحياة»، فإن لقينا الله شهداء، كانت الحياة الكريمة من نصيب أهلنا وشعبنا، وإن كان النصر، فحياة عزة وكرامة.

- وكالعادة، كان حَمُكة يستمع للراديو ولم يشأ قطع حديث عماد، عندما بدأت الأخبار تتوالى: تريدون الأخبار السيئة أم الجيدة؟؟

- فرد عليه عماد: تحدث بصوت منخفض جدًا، وابدأ حيث تريد.

- العدو يضرب حيّ الشجاعية بقوة ولم يهاجمه برًا حتى الآن، وهناك شهداء كثر بين المدنيين، أما بيت حانون فتشهد تدميرًا كبيرًا للبيوت وسط أخبار عن عشرات الشهداء، وينسحب الأمر على جميع المناطق الحدودية، وخاصة أطراف رفح جنوب قطاع غزة.

- قاطعه سمارة: يا رجل، هذا متوقع، أعطنا الأخبار الجميلة.

- عماد يتكلم، أذاعوا بيانًا لكتائب القسام و.......

- حَمُكة: ادخل في الموضوع على طول.

- عملية إنزال خلف خطوط العدو في موقع «أبو مطيبق» العسكري شرق المحافظة الوسطى بعمق 300 متر داخل أراضينا المحتلة عام ثمانية وأربعين، وإبادة ثلاثة جبات عسكرية وقتل ستة جنود فيها وإصابة الآخرين واغتنام قطعتي سلاح m16.

- الله أكبر، ولله الحمد، أكمل، أكمل...

- تحللَّ عماد من تحفظه الأمني للحظات وهو يكبّر.

- شارك في الإنزال الذي تم عبر نفق هجومي، اثنا عشر مجاهدًا من النخُبة القسَّامية، حيث مكثوا ست ساعات متواصلة موزعين على أربعة كمائن بانتظار قوات جيش الاحتلال.

- كانـت مشـاعر الأربعـة وهـم يسـتمعون إلى حَمُكة، تشـتعل حماسـة وانفعـالاً، لم تمنـع بعـض العـبرات مـن السـقوط فرحًـا لهـذه الفتوحات التـي تثلـج الصـدور وتنسـيهم ضيق المـكان وقلـة الحيلة، هـذا ما دفع عـماد الـذي يـدرك أكـثر مـن غـيرة أهميـة أن يـرى ثمـرة الأنفـاق التـي شـارك في حفـر كثـير منهـا ودفـع بعـض إخوتـه حياتهـم ثمنًـا لإنجازها، أن يطلـب حَمُكـة الاسـتمرار بالحديـث: الله يسـعدك يا حَمُكـة، أعطنا المزيد.

- إخوانكـم أيضًـا، قنصـوا ثلاثة جنود شـمال بلدة بيت حانـون، وأصابوا ضابطًـا وجنديين آخرين باشـتباكات على أطـراف البلدة.

- فسأله سمارة وهو يضحك: كيف تحفظ كل هذه التفاصيل؟؟.

- هـذا الـشيء الوحيـد الـذي يلتصق بذاكـرتي بسرعة ولا يمكن نسـيانه، اسـمع هـذا الخـبر الـذي سـيفرحك أكـثر، هجـوم مركـب عـلى تجمـع للآليـات شرق خـان يونـس، حيـث اعتلت قـوات النخُبة دبابـة وجرّافة وفجرتهـا بعبـوات» تانـدوم» وذكـر بيـان القسَّـام أن تسـعة انفجـارات تتابعـت في الدبابـة المسـتهدفة.

- لحظـة، انتظـر قليـلاً «تحـدث عـماد» لم تنتبهـوا لأمـرٍ مهـم، أليـس كذلـك؟!.

-فأجاب علاء: لا نعرف ماذا تقصد بالتحديد!.

- أقصد شرق خان يونس، بلدة القرارة، منطقتنا.

- فقال حَمُكة: حتى أنا لم أنتبه.

- انتظروا أيها الرجال، ليس فقط منطقتنا، أنا على ثقة بأن دماء الصهاينة تسيل هذه اللحظة في كل مكان.

- كان علاء يتحدث وحَمُكة يتحفز لقول أمر: اسمعوا، هناك أخبار كثيرة جداً، واستهداف لآليات العدو، ودعوني أعترف لكم أنني لم أستطع حفظها جميعها فسامحوني.

- تناول المقاتلون عشاءهم الذي كان في ذات الوقت إفطارهم بعد الصيام، وكان أجمل إفطارٍ تناولوه على وقع الأخبار الجميلة، وسهروا ليلتهم ينتظرون في كمينهم مَقدم قوات الاحتلال، أو حتى أي تطور كان، وخاصة بعد أن بات من شبه المستحيل الخروج من النفق بوجود القنّاصة داخل أحد البيوت الذي حدده عماد وفقاً لوصف سمارة.

«مشهد النصر»

- الأحد 20 تموز، اليوم الثاني عشر للكمين.

- لم تعد مصطلحات الكون تكفي لوصف ما يحدث على أرض غزة، ليس الشق الذي اعتاد العالم الرسمي المتواطئ في الجريمة أن يشهد عليه ومنشار الصهاينة يمزق لحم الفلسطيني، يلوكه، يصنع منه غذاءً للدبابات، إنما الكمين الأكبر الذي وقع فيه المشروع الصهيوني، عندما أصبحت غزة مقبرة الوهم اليهودي، والمِنصَّة التي سيحُاكم عليها ثيودور هيرتسل، وأثر بلفور، بالإعدام شنقاً.

- يصفع الصهاينةُ وجوههم حتى تستيقظ من النوم، ويقسو القادة على وجوههم أكثر أملاً بأن يكون الأمُر مجردَ حلمٍ مُزعج، لكن الألم يرتد إليهم مصحوباً بأفظع الحقائق المرة: لقد وقعت دولتُنا في كمين الفناء، غزة تكتب على أجساد جنودنا بالدماء، هنا بداية النهاية، على أرضها يموت الغرباء.

- بالقدر الذي كانت تتصاعد فيه الجرائم، وقذائف المدفعية تلاحق

الفلسطيني حتى في المدارس والمساجد والمستشفيات، إلا أنَّ عودَ المقاومةِ قوي وصلب، لم يتأثر بالغزو البري لأطراف القطاع، وقوات النخُبة تتعامل معه بشراسة، حيث استمر القصف كالمعتاد واستسلم الصهاينة لمعادلة الرعب بالرعب والقصف بالقصف، وتعطل الحياة بأكملها ما دام الفلسطيني في غزة لا يستطيع النوم، ينتف الصهاينةُ شعورهم وتتوقفُ رحلات الصيف للعالم الخارجي بفعل حظر الطيران الذي فرضته المقاومة، تسوّدُ وجوهُ مذيعي الأخبار ومحللي الشأن العسكري تطلبُ مستشفياتهم التبرع بالدم للجنود المصابين، كل ذلك لا يَهُم، «لقد وقعَ الفأس بالرأس» وعلى جيش العدو أن يدفع الثمن.

- يغفو سمارة أسفلَ العين، وقد أعياهُ تعب الانتظار والترقب فسارع حَمُكة لإيقاظه: سمارة، سمارة، استيقظ يا رجل!!

- يفتح عينيه بسرعة ممتشقًا سلاحه: جاؤوا؟!

- لم يأتوا، لكن، شخيرك سيفضحنا ويقودهم إلينا.

- دعك من هذا، فأنا لا «أشخر».

- أُقسم بالله العظيم إنك كنت تشخر وبصوت عالٍ.

- سكت سمارة وهو يفركُ عينيه بسرعة، مستسلمًا يرفع وجهه لأعلى معطيًا إشارة الصعود للراصد، حيث استعد بقية المقاتلين الموزعين

داخـل النفـق، وكان بعضهـم قـد غفا قليلاً بعـد تناول السـحور، وصلاة الفجر، واسـتمطار الفرج بالدعاء، أزاح سـمارة الغطـاء المموه عن فتحةٍ العـين بحذرٍ شـديد، وأرسـل نظراته بكل الاتجاهات بحثًـا عن أي تطور لم تصـل أخبـاره أسـفل الأرض طيلـة السـاعات السـابقة، وأمعـن النظـر وهـو يسـمع بوضـوح أصوات المعـارك القادمـة من جميـع الاتجاهات، منـازل عائلـة عـماد التي أصبحـت مواقـع للقنّاصة وربما مقـرات قيادة للقـوات الغازيـة، لكنـه لم يلحـظ أي جديـد، فنـزل إلى النفـق بعـد أن أغلـق فتحـة العين: كل شيء عـلى حاله.

- أنـزل الرجـال أسـلحتهم وحركـوا وضعيـة أجسـادهم حتـى ترتـاح مـن وضعيـة الاسـتعداد عـلى شـكل قرفصـاء، حيـث جلسـوا في ممرهم الضيّـق مـما ألـزم عـماد وإبراهيـم أن يتجـاور رأسـيهما جنبـاً إلى جنب بعـد أن تمـددا عـلى ظهريهـما لتوفـر مسـاحة لذلـك، الأمر الذي شـجع عـماد للسـؤال: ألا تفكـر بـأولادك؟!

- تأخـر إبراهيـم عـن الإجابة، فـأَسرع عماد بالاعتذار: سـامحني يا أخي إذا ضايقتُك بالسؤال.

- لا تعتـذر يـا عـماد، سـأكذب عليـك إن قلـت إنني لا أفكـر بهما، لكن أحـاول عدم التفكـير بالعائلة.

- وهل نجحت في ذلك، أقصد هل يمكن فعل ذلك؟.

- أحياناً أنجح، وفي أحيان كثيرة أفشل.

- أما أنا فلا أستطيع عدم التفكير بأمي، يقتلني القلق عليها، والشوق لمعرفة ماذا حدث معها.

- ابتسم إبراهيم وهو يقول: لا تقلق على امرأةٍ بدويَّة حتى لو كانت أمك.

- هؤلاء المجرمون ليس لديهم حُرمة لأحد، سواءً كانت امرأة أو رجل، وهذا ما يجعلني أتوقُ إلى معرفةِ ما حدث معها عندما افترقنا.

- توكل على الله، إذا كان لك نصيب في هذه الدنيا ستراها، وإذا لقينا الله شهداء فستراها حتماً في جناتِ النعيم إن شاء الله، فنحن مظلومون.

- إبراهيم؟!

- نعم.

- حدثني عن أولادك؟!

- أخاف أن أفتح وجع غيابك عن الأهل؟

- يا أخي افتح هذا الوجع، فو الله ما يزيدني إلاَّ إقدامًا، لتأديب المحتلين الذين يسرقون منا حتى اللحظات الجميلة.

- لدي فارس وأميرة، أما الأميرة فأسماء الصغيرة، ابنة الثلاثة أعوام،

رقيقـة كالنسـمة، تسـحرُني كلـما نظـرتُ إلى نعومـةِ وجهـا الملائـكي وعينيهـا الزرقاويـن....؟؟

- قاطعه عماد: عيون زُرْق في قطاع غزة؟.

- ألا تعلـم أن العـرب غـادروا منـذ بعيد الخيمة والصحـراء وتزوجوا مع أمـمٍ عديدة وأنت لا تـزال مكانك؟؟.

- ضحـك الاثنـان بصـوت منخفض، ثـم قال عماد: لقـد نظرت في وجهك الحنطـي، وعينيْـك البُنيتيْن فلم أجد أثراً لتلـك الزُرْقة؟!.

- ولم تفكـر بـكل المؤثـرات الجينية الأُخـرى كالزوجة مثـلاً أو أحد أفراد العائلة؟!.

- لم يخطر على بالي، اقلب الصَّفحة وحدثني أكثر عن أسماء.

- أجمـل مـا فيهـا، كلمـة بابـا تخـرج مـن فمهـا الدقيـق، فتجعـل منـي أسـعد إنسـان عـلى وجه البسـيطة، أمـا محمد، ففـارسُ هُـمام، يريد أن يطـوي طفولتـه قفـزاً نحـو الرجولـة ولم يبلـغ بَعدُ سـن الخامسـة.

- هل مشاعر الأبوة جميلة؟!.

- لا يمكن وصفها، تجري في دمك، تجعلك.. لا أدري ماذا أقول.

- أسأل الله أن يُعيدكَ لهما سالماً.

- ليس قبل أن نؤدب الصهاينةَ.

- ولأمهما أيضًا، قل آمين.

- آمين لنا جميعًا.

- وفجـأة، رفـع عماد رأسـه قليلاً وأضـاء مصباحه في وجـه إبراهيم وهو ينظـر نحـوه: لم تقـل لي يـا صاحـب الأفـكار الإصلاحيـة، هـل طبقـت مـشروع الـزواج مـن أرامل الشـهداء عـلى نفسـك، أم فعلتهـا وناقضت نفسـك؟! هيـا أخبرني.

- يا رجل أطفئ المصباح أولاً لقد أعميتني.

- لن أطفئه قبل أن تقول الحقيقة وإياك والمراوغة.

- حسناً، قبلت بي «المرأة التي توزن بالذهب» أرضيت الآن؟!.

- توقـف المشـهد قليـلاً، وعماد ينظر إلى إبراهيم وضـوء المصباح لا يزال في وجهـه، وسرعـان مـا طبع قبلة عـلى جبهته متأثرًا وهـو يقول: ألم أقل لكم، وربُّ الكعبة سـننتصر؟!.

- سـننتصر، سـننتصر، ولكـن! ليـس قبـل أن ترحـم عينـي وتُطفـئ مصباحـك هـذا.

- ومضـت سـاعات النهـار ثقيلـة، تمـشي ببـطء شـديد، ورجـال الزمـرة

الصائمـون يتضرعـون لخالقهـم، يتوسـلونه، أن يسـوق لهـم الفـرج بعـد هـذا الصبر، وتحديـداً بعـد تـوارد الأخبـار العاجلـة في الراديـو، عـن عنفـوان المعـارك في الميـدان واضطـرار العـدو عـن كشـف جـزء مـن خسـائره البشريـة في صفـوف قواتـه، بعد إخـراج المقاومة عـن تفاصيل معاركهـا التـي أذهلـت نخبـة الاحتلال مـما دفعه إلى الإجرام العشـوائي وخاصـة في حـيّ الشـجاعية الـذي حرقـه بنـيران المدفعيـة وصواريـخ الطائـرات، لكـن اللافـت في كل مـا ذكـر، أن إعـلام الصهيوني بـدا مرتبكاً مـتردداً، مربوطـاً عـلى لسـانه، يريـد بعـض إعلامييـه الحديـث، لكنـه يصطـدم بالرقابـة العسـكرية «التسـنتروره» التـي تحظـر تنـاول أي موضـوع دون إذنهـا وخاصـة موضوع الخسـائر البشريـة والمادية، لكن كتائـب القسَّـام، أوقفـت دولـة الاحتـلال عـلى قدميْها عندمـا أعلنت في بيـان لهـا، أن وحـدة النخُبـة التابعة لهـا، قتلت فجر الأحـد أربعة عشر جنديـاً صهيونيـاً في كمين محكم لقـوة صهيونية (مُؤللـه) توغلت مئات الأمتـار شرق حـيّ التفـاح في مدينـة غـزة وجَرحـت أكـثر مـن خمسـين جنديـاً آخرين.

- وكلـما نطـق الراديـو بالخـبر، كلـما انفجـر الكمين شـوقاً للقـاء العدو، ويقـول سـمارة: لقـد سـبقتنا الكمائـن الأخـرى للخـير، ثم ضحـك، وهو يتقـدم باتجـاه الراديـو أسـفل البـئر، بعـد أن تنـاول الخمسـة وجبـة العشـاء، وفكـوا الصـوم في آن واحـد، فسـأله عـلاء المتكـئ عـلى ظهـره بالقـرب مـن ثلاثـة أمتـار، الضلـع الصغـير مـن حـرف الـلام باللغـة الانجليزيـة: يُفـترض أن تبـكي مـن الحَـسرة، لا أن تضحـك؟!

- أضحك على غرور قادة العدو الذين لم يفهموا بعد ولم يعرفوا، طبيعة الجيش الذي يقاتلون، فعنجهيتهم تلعب لصالحنا، تخدمنا، انظر إلى حماقتهم، كل القطاع يعرف أن الشجاعية «كمثلث برموده» تبتلع الأجسام الغريبة عنها، ومع ذلك يدفعون بقواتهم إليها.

- يتدخل عماد: إخواننا يقولون إن الكمين حدث شرق حيّ التفاح وليس الشجاعية؟!.

- لو كنت تعرف جغرافيا المكان لما فرقت بين التفاح والشجاعية فهما حيّان يلتصقان ببعضهما البعض ويشكلان درعاً متقدماً لصد قوات العدو عن مدينة غزة، وإن كان للشجاعية خصوصية الموقع والتأثير، لذلك يستهدفونها بكل ما أوتوا من قوة.

- أنصتوا قليلاً؟!، همس حَمُكة بحماس منقطع النظير، ثم استطرد قائلاً: هناك خطاب مهم سيلقيه «أبو عبيدة» الناطق الرسمي باسم القسَّام.

- فسأله عماد: هل أشاروا إلى فحوى الخطاب؟!.

- لا، لكنهم يشيرون إلى أهميته بصورة ملحوظة.

- ها، ماذا تقول يا أبا محمد؟!.

- الله أعلم لعله خير.

- قال سمارة: سيعلن استسلام لواء جولاني لقائد كتيبة الشجاعية!!.

- ضحك خمستهم الذين كانوا يهمسون همساً، حيث قال عماد: نسأل الله ذلك، لكنني أرى سحق ثلث القوات المهاجمة للحي، أكثر منطقية؟!.

- فعلّق علاء: يا سيدي أنا أوافق على إبادة جزء من تلك القوات، فو الله إني أعرف رجالاً هناك سيأكلون جنود العدو بدون ملح.

- لا تنسوا، يقول حَمُكة: إن الشجاعية حّي الشهيد القائد أحمد الجعبري.

- فيستطرد إبراهيم: لو عدّدنا مآثر الشجاعية لما انتهينا، يكفي أنها بيت خنساء فلسطين أم نضال فرحات _رحمها الله_ التي قدمت أبناءها شهداء وأسرى.

- على كل حال، يقول عماد: سنرى بعد قليل ما سيحمله أبو عبيدة من أخبار.

- فيتدخل علاء: سنسمع ولن نرى يا عماد!.

- ولم يكد علاء ينهي همساته حتى طلب حَمُكة من الجميع الاقتراب، حيث بدأ أبو عبيدة بخطاب المعركة وموقف المقاومة من كل ما يجري في الميدان أو خارجه، وجاء على تفاصيل عملية الفجر قائلاً: العملية الأخيرة التي نفذها مجاهدونا شرق حيّ التفاح فجر

اليـوم سـتظل كابوسـاً يلاحق جيش العـدو إلى أن يباد بـإذن الله، وذلك بعـد أن أقدمـت قـوة خاصـة مـن كتائـب القسَّـام عـلى اسـتدراج قـوة صهيونيـة (مؤللـه) حاولـت التقـدم شرق حـّي التفـاح شرق غـزة، وقـد نجـح الاسـتدراج ووقعـت القـوة الصهيونيـة في حقـل من الألغـام المعُد مسـبقاً، وفجـر مجاهدونـا حقـل الألغـام في الآليـات الصهيونيـة، ثـم تقدمـت القـوة القسَّـامية نحـو ناقلتـيّ جند وفتحـت أبوابهـا وأجهزت عـلى جميـع مـن فيهـا، وقـد أسـفرت هـذه العمليـة عـن مقتـل أربعة عـشر جنديـاً صهيونيـاً، وقتلهـم مجاهدونـا مـن مسـافة صفر.

- لم يتمالـك سـمارة وعـماد نفسـيهما، فأخـذا يكـبران همسًـا ويشـدان عـلى أيـدي بعضهـما، بينـما كان عـلاء يديـرُ الأمـر في رأسـه وسرعـان ما قـال وأبـو عبيـدة يـشرح بالعمليـة: أسـمعتم مقطـع «فتـح الناقلتـين والإجهـاز عـلى مـن فيهـا مـن مسـافة صفـر»؟!

- يجيـب عـماد: مـا الغريـب في ذلـك، رجالنـا أسـود يفعلـون أكـثر مـن ذلك.

- أقصـد، قاطـع حديثـه بالمفاجـأة التـي فجرهـا أبـو عبيدة: لكـن الذي لم يعلـن عنـه العـدو فقـدان أحـد جنـوده في العملية ويدعى «شـاؤول أرون» صاحـب الرقـم «6092065»، وأنـه أسـير لـدى كتائـب القسَّـام، لم يكـد أبـو عبيـدة إنهـاء حديثـه حتـى تطايـرت الدمـوع مـن العيـون والعنـاق المسـتحيل في ضيـق النفـق بـين المقاتلـين، لا تـدري مـا الـذي جـرى، ضحـكٌ وبـكاء، وكأن القـدس قـد تحـررت، يقـول سـمارة منفعلاً:

الله أكبر، لقد حطمنا كبرياء الصهاينة، هذا هو مشهد النصر في الحرب.

- فيكمل علاء: بل تحرير الأسرى، إن شاء الله.

- الله أكبر، كيَف فاتني ذلك، ليتني كنت معهم الآن لأرى فرحتهم.

- فقال عماد: لقد أنذرهم محمد الضيف القائد العام منذ الحرب السابقة «حجارة السجيل» أن دخولهم البري يعني تحقيق الأمل المنشود بتحرير الأسرى.

- يعلق إبراهيم: يا سبحان الله، جاؤوا ليعاقبوا المقاومة في غزة على أسر المستوطنين الثلاثة وقتلهم في الضفة الغربية بعد فشل عملية التفاوض عليهم، فانقلب السحر على الساحر، وسيضطرون الآن صاغرين لتحرير أسرانا مقابل الجندي.

- وفي غمرة هذا النصر الجميل، تذكر علاء: يا إخوة، هدوء تام، قطع الكلام حتى الصباح، دعونا نلقي نظرة خارج النفق.

- وبينما النفقُ يعيش حالة النشوة الجهادية على طريقته، كانت فلسطين تصنع عُرساً وطنياً في كل مكان، فأهالي الشهداء في مستشفى الشفاء في غزة يرفعون مذيع أحد فضائيات المقاومة على أكتافهم لدى سماع الخبر، نسوا جراحهم الأليمة للحظات وهم يتلقون خبر أسر الجندي، وفي رام الله، عشرات الآلاف يملؤون الشوارع ويهتفون

للمقاومـة ولبسـالةِ النخبـة، يتكـرر الأمـر في نابلـس والخليـل وفي كل مـكان، ثـم تبـدأ الأخبـار بالتـسرب مـن داخل سـجون الاحتـلال، حيث التكبـير الـذي هدم الجـدران والدموع التي أذابت القضبان، وسـجدات الشـكر للـه مـن جباه حبيسـة الأسر منذ عشرات السـنين باتـت تصافح حريتهـا المؤكدة.

«وأخرجت الأرض أسرارها»

الاثنين 21 تموز اليوم الثالث عشر للكمين

- كانـت أصواتهـم تتعاظـم وهـي تتناهـى إلى مسـامع عـلاء المرابـط أسـفل فتحـة البـئر، يحـرس ويراقـب، فأنصـت جيـداً مرسـلاً عينيـه إلى أعـلى، يسـتوثق مـما سـمع قبـل أن يخـبُر مقاتليـه الذيـن كانـوا عـلى استنفارهم المسـتمر منـذ الغـزو الـبري، وأجسـادهم لم تسـتطع الراحة الثوريـة، أرواحهـم المتحفـزة للالتحـام، فقـد كانـت السـاعة السادسـة والنصـف صباحـاً، وألسـنتهم وقلوبهـم تسـألُ اللـهَ الظفـر بَرقـاب الصهاينـة، ونسـمة الهـواء البـارد تُضفـي عليهـم شـوقاً إلى كل جميل في غـزة، فحتـى النسـيم وسـط المعركة له واقع السـحر على عُشّـاق الأرض وملحهـا، يرسـم الابتسـامة عـلى وجوههـم، يُحـضر الأحبـة إلى أعتـاب قلوبهـم: تُلقـي «أمُ عـماد» تواشـيح الصبـاح عـلى حبيبها وهـو يقطفُ ثمـارَ الأرض وقـت النـدى، وعـلاء يتسـلل إلى والدتـه التـي بـدأت لتوها إخـراج الخبـز مـن الفُـرن، عائـداً مـن صلاةِ الفجـر ومـا بعدهـا يحملُ بـين يديْـه صحـنَ الفول وأقـراص الفلافل، بعـد أن كان الزبـون الأولُ في

القطاع، ووالد حَمُكة يهزُ السرير على ساهر الليل مرابطًا في الثغور حتى ينهضَ للحاق بجامعته، لكن موسيقى البراءة في سرير محمد وأسماء ووالداهما يقفان على رأسيهما يلتقطان أنفاسهما الساحرة وهما نائمان، كانت عجزَ قصيدة متنها قصة حُبٍ بين إبراهيم وسيدة قلبهِ التي وزنتها فلسطينُ بالذهب، أما الفعل الذي حوّلَ نسائم الصباحات جميعها إلى ابتسامة..

سكنت على شفتيّ سمارة فحولته إلى هائم في بحرٍ من الهوى، خفقاتُ صدرٍ أوسع من السماء في عِشقه، سكنت فيه «أمل» وأسكنت معها قمراً لم يغب نوره عنها، وقد تعطلت لُغةُ الزمن يوم أن كانت بلابلُ الصبح شاهدةً على حكايتهما يتناجيان عشقاً عبر الأثير.

- همسَ علاءُ بكلمات سريعة: استعدوا، استعدوا.

- فاستنصر المقاتلون الأربعة يعدون أنفسهم لتغطية الراصد الذي سيقوم به علاء والذي بدأ بالصعود من البئر دون أن يصل الفتحة، حيث استطاع سماع أصوات كثيرة تقترب بهدوء ناحية الغرف الثلاث. وكانت تسير باطمئنان دلت عليه أحاديثهم، فنزل بسرعة البرق دون أن يحدث حركة: قوات راجلة تقترب إلينا، قالها وهو يتوجه إلى الناحية الثانية من الوصلة مُخلياً مكانه لعماد، فسأله سمارة الذي كان يرفع بندقية الكلاشنكوف إلى أعلى، استعداداً للقتال: كم تُقدِّر عددهم؟!.

- هـم كـثُر، كونـوا عـلى أهبـة الاسـتعداد لتنفيذ مـا اتفقنا عليـه، توكلنا عـلى الله.

- لم يكـن هنـاك كلام كثـير، فقد اسـتنفدوه طيلة الليالي والأيـام الماضية وهـم ينتظـرون هـذه اللحظـة، وأي لحظـةٍ كانت!! هـي في علم الوقت بضـع ثـوانٍ معـدودة، منـذ أن التقطـت أُذنٌ علاء صـوت الجنود وحتى الاسـتعداد لسـاعة الصفـر، لكن لـدى المتشـوقين لتأديب العـدو والنيل مـن ظلمـه، مثـل الدهـر طويلة جـداً، كالضفدع، تمـشي الهوينـة وتأكل من أعصـاب المحاربين.

- تقـترب الأصـوات أكـثر، تدنـو إلى غرفـة البـئر، راحـة غريبـة في سـلوك الجنـود الذيـن يتبادلـون الحديـث، تقدمُهـم ناحيـة الكمـين يوحـي بتحللهـم مـن قواعـد الحـذر الشـديد وقـت الحـرب، كل ذلـك يؤكـد أن المنطقـة لم تعـد سـاحة معركـة ولـو في جزئهـا الصغـير هـذا، تُحدثُ أقـدامُ الجنـود جلبـة مسـموعة أمـام الغرفـة، تسـكت أنفَـاسُ الرجـال عـن العمـل، كي لا ترصدهـا محافـلُ الصليبيـين الجُدد الذيـن علّقوا على صدورهـم النجمـة السداسـية ظنّـاً بأنها سـتحميهم من غضـب الأرض، وسـكانها، وفجـأة!! بـدا بـابُ الغرفـةٍ الـذي سـقط إثـر قصـف الدبابـة يُصـدر طقطقـة جـراء دوسـه من جانـب الجنـود الذين دخلـوا الغرفة، وهنـا!! كانـت فلسـطين ترفـع أكـفَّ الضراعـةِ للسـماء، تطلـبُ عـون المـولى ونـصره، حتـى تُـراب النفـق الـذي صاحـب الرجـال طويـلاً، كان يرجـو خاتمـة عـزة لقـوم يِعشـقون لقـاء العـدو حُبـاً بالحيـاة.

- ينتظر عـمادُ إشـارة عـلاء إلى بدْء التنفيـذ، لكن القائد يتريـث فيبلغه عـماد همسًـا عبر الرجـال: لقد أصبحـوا في الغرفـة دعنا ننفذ.

- ومـا أن انتهـى مـن همسـه حتى انزاحـت قطعةُ الخشـبِ التي كانت تُغطـي فتحـة البـئر، فتسـلل الضـوءُ لجـزءٍ مـن النفـق، فتراجـع عـمادُ وإبراهيـم خطـوة للـوراء، لحظتهـا وجّه الجنـودُ مصابيحهـم الكهربائية إلى داخـل البـئر وهـم يضحكـون، ويتبادلـون حديـث النـصر بكشـفهم فتحـة النفـق، عـماد يهمـس للقائـد، أكـثر مـن سـتة جنـود في الغرفـة، ووجـود جهـازيّ اتصـال لاسـلكي معهم!!

- كان عـلاء يفهـم معنـى ذلـك جيـداً فاللاسـلكي يحملُهَ جنـديٌّ يلتصقُ بالضابـط أينـما ذهـب، مـما يعني وجود ضابطيْن في الغرفـة، بدأ الجنود الذيـن شـعروا أنهـم وقعوا على كنزٍ يطبقون النار مـن فتحة البئّر داخل النفـق ومـا زالوا يضحكـون، لحظتها فقـط!!، تلقى عماد الإشـارة: توكل عـلى اللـه، مزقهـم،، فشـغّلَ عـماد عبـوةَ الأفـراد «الرعديـة» الموضوعة في زاويـة الغرفـة وتغطـي هندسـياً كل المتواجديـن فيهـا وخارجها أمام الباب: بسـم الله.

- لكنها لم تعمل!، وبثانيتيْن زمنيتيْن، اسـتبدل بطارية التشـغيل والجنود مـا زالـوا داخل الغرفة يحتفلـون بإطلاق النار داخل البئر: بسـم الله.

- لم تكـد تنتهـي أحرفهـا المنطلقـة مـن روحـه قبل لسـانه، وهو يشـغّل مـرة أخُـرى العبـوة الناسـفة حتـى انخرسـت أحـلام صهيـون، ومـزّقَ

الصمتُ المكان، وتسلّلَ الغُبارُ إلى داخل النفق بعد أن اختفى الضحكُ والضاحكون، وانكتمت أنفاس الجنود إلى الأبد، تمُزِّقُ أجسادهم مئاتُ الشظايا التي لم تبْقِ ولم تذر، وقد أحدث الانفجارُ مجزرةً بكل المتواجدين في الأمتار الضيّقة تلك.

- وقبل أن يستفيق ما تبقى من الجيش الذي يُقَهر من الصدمة، كانت نُخبةُ القسام تخرجُ من العين الثانية لتُعلِّم الصهاينة درساً في فنون الفدائية، يُعطي القائدُ علاء الذي يتقدم المقاتلين إشارة الهجوم: انقضاض، انقضاض.

- يخرج من العين أولاً وهو يحمل بُندقيته يتبعه سمارة الملاصق له كظله، وبلمح البصر، يتناولان عبوتيّ شواظ لحقت بهما إلى الأسفل، وأصوات صراخ تتعالى أمام الغرف، لم تستوعب بعد ما حدث لطليعتها من القادة الذين تبخرت عنجهيتهم في لحظة مقاومة، وقد أقعدت حركتهم هسِتيريا من الخوف عندما أخذوا الأرض ولم يدروا وهم يصنعون وجوههم على رمالها الملتهب، أنها تلدُ اللحظة بعد مخاض استمر ثلاثة عشر يوماً.

- كان عُنصر المفاجأة عاملاً مهماً بإنجاح عملية الإطباق على الهدف فالإرباك الذي حدث في صفوف العدو، سهّلَ عملية التحرك لدى المجاهدين الذين بدأوا بالخروج تباعاً، لمباغتة القوة الجريحة التي تشتت تمركزها وسيكون من الصعب عليها استيعاب هجوم من غير نقطة الانفجار، لذلك، استغل المقاتلون الثواني الأولى ما بعد التفجير.

- كان عماد الذي يديرُ ظهره للبئر وغبار الانفجار من ورائه، الأخير في صف إخوانه الذين بدأوا بالتحرك دون إصدار أي صوت، يضع يده على كتف إبراهيم من الخلف والأخير على كتف حَمُكة والجميع يتحرك، يطلب سمارة، الذي أصبح خارج النفق محمياً من نيران العدو ورصده بشجرة نخيل كبيرة تشكل ساتراً طبيعياً لخروج المجموعة، العبوة الأولى: ناولني بسرعة.

- حيث كان علاء قد وثب عن الجدار الصغير إلى داخل الغرفة الثالثة غير المسقوفة، ينتظر استلام عبوة الشظايا من سمارة: بسرعة، بسرعة، ناولني الثانية واقفز.

- ولما أصبح الاثنان في الداخل، تقدما وسلاحهما مصوبٌ للأمام، يخترقان الغرفة الثانية التي انهدم أجزاءٌ من جدرانها بفعل الانفجار، حيث توجه سمارة إلى غرفة البئّر للتطهير بالنار، وسرعان ما حوّل بندقيته إلى خارج الغرفة حفاظاً على رصاصه وهو يرى الجنود الغزاة مضرجين بدمائهم دون حِراك، في الوقت الذي كان فيه علاء يزرع الموت في أجساد الجنود أمام الغرف، متخذاً موقعاً قتالياً عبر النافذة، حينها بدأت جموع الصهاينة بالاستيقاظ عندما انفتحت النيران من جميع الجهات القريبة لموقع الكمين، لتشتيت التركيز لدى رجال النخُبة وتمكين قواتهم من لملمة جراحها ريثما تصل التعزيزات القريبة جداً للموقع، في هذه اللحظة كان حَمُكة الذي يخُرِجُ نصفَ جسده من عين النفق، واضعاً قاذف آر بي جي على كتفه، يرصد إطلاق النار العشوائي من أحد المنازل التي تتمركز فيه

قـوات العـدو ويعالجه بقذيفـة «التاندوم» صاحبة الرأسـين المتفجرين، حيـث اخـترق الرأسُ المتفجـرُ الأول واجهة البيت تمهيـداً للانفجار الذي أحدثـه الـرأس الآخـر في الداخـل الـذي أحال جميـع مَـن كان في المكان إلى خـبر كان!!.

- وبسرعـة قياسـية أعـاد حَمُكـة تعمـير قاذفة بـرأسٍ جديـد، في الوقت الـذي كانـت فيـه صيحاتُ «الله أكبر» تدوي في سـماء «القـرارة»، وعلاء وسـمارة يخوضـان معركـة مـن نقطـة صفـر مـع جنـود العـدو الذيـن بـدأوا يطلقـون النـار تسـاندهم نـيران رشاشـات ثقيلـة حـددت مـكان البطليْن.

- يهتـف سـمارة: اللـه أكـبر لا نامـت أعين الجبنـاء، ثم يعـود إلى الغرفة الثالثـة، يطلـق النـار مـن مواقـع مختلفـة والرصـاص المعـادي يحـاول اصطيـاده، يـزرع الحُـبَّ في المـكان الـذي أقسـم أن يعشـقه حتـى الشـهادة، وطيـف «أمـل» يظللـه، يحميه مـن الجُبن: تقّدم فـارسي وذُد عـن شرفي، أنـا الحـرة ما كنـتُ أرضى الحيـاة وغاصب عـلى أرضي، دونك المـوت إنْ عـبروا ولم يكـن جسـدُكَ القَنبُلـة.

- فـتردُ عليهـا دمـاءٌ بـدأت تسـيل مـن جسـد حبيبهـا الـذي سـقط إلى جانـب قائـده: هـاك دمـي، مـا كنـت أبخله على وطـنٍ أنت أجمـلُ مَن فيـه، أَبلغـي المجـدل وسـهلنا والبيـدر، أني لَسـت بخسـارة وأنـا أُجفـف دمـع بلـدي النـازف والملتقـى الجنة.

- يصرخ علاء: سمارة!! غطني بالنيران، سألقي قنبلة.

- كان علاء يحافظ على إبقاء النار مستمرة يتناوب مع سمارة، لكن رفيقه لم يرد: سمارة، بسرعة أشعر بهم يتقدمون.

- فالتفت إلى جانبه يتفقده!! فوجده مُحتضناً سلاحه والدم يغطى جسده الذي قاتل حتى أرهقه الرصاص، لم يشأ أن يتأوه لقائده والمعركة في أوجها فاختار الرحيل بهدوء الأشجار واقفاً، وعيناه تحميان ظهر الوطن.

- الله أكبر، أطلقها علاء وهو يزف صديق الصبا إلى السماء دون أن يوقف الرصاص، لينتقل بعدها إلى الغرفة الثالثة يلقي قنبلة يدوية على القوات المتقدمة مطلقاً العنان لتكبيراته، يُبرُّ بقسم الثبات في المعركة وأنهم لن يمروا إلاَّ على جسده، بينما كان يحاول إلقاء قنُبلة ثانية، اهتدت إليه شظايا انفجار أحدثه الصهاينة في المكان، وهم يشنون الهجوم على موقع الكمين، فأقعد حركته عن المقاومة فزحف إلى جانب سمارة الجميل، الذي كان يبتسم للسماء محاولاً الاستعانة ببندقيته التي لم تتأذ ولكن!! الروح كانت تسابق الريح إلى العلياء، تخاطب ساكنها علاء: هوّن عليك صاحبي، قد أعذرتَ إلى مآذن الرملة وشاطئ عسقلان، لم يمروا لا تخف، ولن يمروا لا تخف، فأرضُك على الغاصبين حرام.

- وفي الجهة الثانية، كان عماد يسحب حَمُكة المصاب إلى داخل

النفـق، وقـد فقـد وعيَـه إثـر الانفجـار ليسـيل الـدم مـن أنفـه وعينيـه ويأخـذ مكانـه في الأعـلى محـاولاً اسـتخدام آر بي جـي دون جـدوى لتعطلـه بسـبب قـوة الانفجار الذي حـدث، لكنه لم ييـأس فاتخذ زاوية قتاليـة في المـكان ليتيـح لإبراهيـم التمركـز قرب عـين النفق واسـتخدام بندقيتـه في صـد العدو الذي جاء لمسـاندة القوة المسـتهدفة في الكمين، حيـث بـدءا بإطـلاق النـار بغـزارة عـلى قـوات العـدو المكشـوفة التـي تتقـدم بـين الأشـجار، وكلـما كانـت بندقيـة إبراهيـم تتوقـف كانـت نـيرانُ الصهاينـةِ تمطـر المـكان برصـاص دون أن تظفـرَ بهـما لوجودهما في مـكان محمـي، لحظتهـا!! كانـت عينـا عـماد تراقبـان المشـهد بهدوء ورأسـه يعمـل بحنكـة متناهيـة وقـت الأزمـة، يطلـب مـن إبراهيـم: اسـتمر بإطـلاق النـار في اتجـاه واحـد!!.

- فـيرد إبراهيـم بعينيـه وهـو يطلـق حبـات مـن الرصاص عـلى مصادر إطـلاق النـار: والجهـات الأخُـرى، هكـذا سـيطبقون علينا؟!.ِ

- هذا ما أريده، امنحني دقيقة واحدة فقط.

- في تلـك الأثنـاء والمعركـة في دقائقهـا الأولى، كان العـدو يتقـدم مـن جميـع الجهـات، تحـت تغطيـة ناريـة كثيفـة، يريـد الوصـول بأقـصى سرعـة لجنـوده القتـلى والجرحـى لإنقـاذ الموقـف، ومنـع وقـوع أسـوأ الفرضيـات التـي يتقدمهـا أسر جنـدي مـن قواتـه وسـحبه إلى داخـل مواقـع المقاومـة الحصينـة عـبر الأنفـاق، وخاصـة أن المباغتـة فاجأتـه في منطقـة تـم تمشـيطها عـدة مـرات لحساسـيتها المتمثلـة في وجودهـا

على الحدود، شجعه في تقدمه انحسار المقاومة في بندقية واحدة بعد السيطرة على المقاومة العنيفة التي أبداها سمارة وعلاء قبل استشهادهما وكبدته خسائر إضافية في قواته المضروبة على رأسها، وهنا!! كانت الكلمة مجدداً للمقاومة، عندما نجح عماد باستدراج العدو إلى كمين جديد في أماكن محددة في أرضه، تحيط بالغرف الثلاث: وعلى الفور، قال لإبراهيم: الآن!!، وكان يبعد عنه مترين فقط، حيث أعطاه قُنبلة يدوية، فتحها عماد وألقاها في مكان لا يحتمل الشك بأن الجنود يتواجدون فيه، فكل شبرٍ من المكان مكتوب على تُرابه: هنا مرَّ عماد وزرع، أربعُ ثوانٍ كانت كافيةً لسماع الصراخ بعد انفجار القنبلة الأقوى في العالم وفق مصادر العدو الذي شهد بالقدرة التصنيعية للقسّام في غزة، وقبل أن يتحرك رصاص الجهات المتبقية، كانت القنبلة الثانية تمزِّقُ الجنود المحُتمين خلف ما تبقى من جدار الغرفة الأولى، لم تدر قوات العدو المساندة من بعيد ما تفعل، سوى إطلاق النار العشوائي وتحديداً القنّاصة المتواجدين في الأبراج الحصينة على الحدود ويستخدمون الأسلحة المتوسطة والدقيقة، ولكنّ ذلك لم ينقذ الموقف الأحمق الذي أوقعوا أنفسهم فيه في منطقة مدروسة جيداً من جانب سيد المكان «عماد»، لأنَّ القنبلة الثالثة زادت الأمر تعقيداً وهي توزع شظاياها القاتلة على أجسادهم، وهم يصرخون ويشتمون بالعبري على مسامع إبراهيم وعماد: أسكتوا هذا المجنون، اضربوه بصاروخ، لقد مزقنا، هيا.. لكن ذلك زاد من بسالة عماد وتصميمه على إيقاع أكبر الخسائر بهم، فهم الآن في موقف ضعف لا يستطيعون التحكم بمواقعهم المكشوفة

لـه، لذلـك قـال لإبراهيـم: ناولنـي القنبلة الرابعـة... ومـع كل رميةٍ كان ينفذهـا يُـردد قـول المـولى عـز وجـل «ومـا رميـت إذ رميت ولكـنّ الله رمـى» ثـم يقـول بحـزم الواثـق: «بسـم اللـه، اللـه أكبر».

- كانـت الكلـمات تجري على لسـانه كالماء يشـعر بها، تخـرج من وعيه وروحـه، «معيّة» الله حـاضرة في وعي المظلومين.

- لم يكتـف عـماد عنـد هـذا الحـد، فعـاود المحاولـة لاسـتخدام قـاذف ال آر.بي.جـي وإبراهيـم يشـغل العـدو بالرصـاص، لكنـه لم يُـردِ العمل، حينهـا كانـت الحسرةُ باديـة في عينه وإبراهيم ينظر إليـه، فعماد يقاتل بقنابـل إبراهيـم بعـد عجزه العـودة للبيـت وإحضار سـلاحه وذخيرته، وكأنـه يؤنـب نفسـه معاتبـاً: لقـد وعدتهـا ألا يمـروا عليهـا وفي جسـدي عِـرقٌ ينبض.

- لحظتهـا، كان ينظـر إلى عينـيّ إبراهيـم وهـو الـذي لا يستسـلم ولا يسـتطيع التفكـير بأمـرٍ مـا دون النـصر في المعركـة، كان إبراهيم يعطي قيـادَة لعـماد الـذي يـدرك مـا يفعلـه، لكنـه الآن يشـعر أن خطـراً بـدأ يُحدثِـهُ رصـاصُ القنـص الدقيـق والـذي يُغطـي الجـزء الصغـير المتمركز فيـه مـع عـماد، وأن أيّ حركـة غـير محسـوبة سـتكلفها غاليـاً، غـير أن الحركـة التـي قـام بهـا عـماد! كانـت أسرع مـن كلـمات التحذيـر التـي تهـم للخـروج مـن فـم إبراهيـم، حيـث اصطفت أشـجار الزيتـون التي غرسـها بيديـه تلقـي عليه التحية وقـد كان بالأمس يسـقيها الماء واليوم يرويهـا بدمـه، رصاصـة اخترقت جانـب وجهه الأيسر لتخـرج من الأيمن

محدثة ضرراً كبيراً في قُرص وجهه الباسم، ليسقط على الأرض محتضناً أرضه التي حرثها وزرعها وأكل منها وختم عشقه لها بعطاء دمه.

- خاطبه إبراهيم: قل لا إله إلا الله يا عماد... لم يكن لغير ذلك من معنى، فلقد عاش عماد رافعاً لواء التوحيد وليس من الوفاء التذكير بغيرها، وأي كلام هذا الذي يليق في حضرة الشهادة إنْ لم يكن صانع التحفيز في وجدان المظلومين؟!، فلسفة الثوار من أحفاد محمد بن عبد الله، سيدهم المُفدّى الذي حرّر عقولهم من التبعية لغيرِ الله. فأصبحوا فدائيين لأجل إنسانٍ وأرضٍ وقضية.

- انسحب إبراهيم إلى داخل النفق بعد خمسة دقائق من المعركة، وعلى السطح وراءه، بعض روحه من أوتاد فلسطين، يطمئن على حَمُكة، وبندقيته مصوبة للأعلى: هل أنت بخير؟!.

- الحمد الله شيء بسيط، أين الشباب؟ّ.

- لقد أدمينا المحتل في الأعلى وأوقعنا فيهم مَقتلَه!.

- أسألك عن علاء والشباب؟!.

- فأجاب إبراهيم عن وجع لابد منه: لقد نالوا الشهادة.

- الله أكبر، ماذا تفعل هنا؟!، وهمّ بالصعود فأمسكه إبراهيم: انتظر، ليس الآن فالوضع خطير.

- لكـن حَمُكـة اسـتمر بالصعـود وزحـف قليـلاً باتجاه قـاذف ال آر-بي- جـي الـذي أخـذلَ عماد وسـط المعركـة، واسـتطاع حمله متخـذاً موقعاً قتاليـاً: بسـم اللـه... ولكـن القذيفـة لم تخـرج إلى هدفها المـرئي لحَمُكة، فأخرجهـا وأعـاد تذخيرهـا مـرة أخرى: بسـم الله.

- لكنهـا اسـتمرت في اسـتعصائها ورفضهـا العمـل، فلـم يكـن مفـر إلا العـودة للنفـق قبـل الإطبـاق الأخير لقـوات العـدو التي لا تـزال تتقدم ببـطء وحـذر شـديدْين تحت كثافة نـيران لا تتوقـف، وفي اللحظة التي اختفـى فيهـا تحـت الأرض!!، كانـت جرافة العـدو العملاقـة والمُصفحة بصـورة كاملـة!! تصـل لموقـع المعركـة ناحيـة العـين وتبـدأ بالهـدم، فانسـحبا إلى الداخـل بسرعـة وهـما يشعران بالهـدم مـن فوقهـما، متجهـان نحـو الأمتـار الثلاثـة التـي تقـع خـارج حـدود الغـرف بالقرب مـن البـئر، يقـول إبراهيـم وسـخونةُ المعركة في أنفاسـه المتصاعـدة: هنا أفضـل حتـى تحـين اللحظـة المناسـبة لاسـتئناف الهجـوم.

- أتسـمع؟! دبابـة فوقنـا، يبـدو أنهـم سـيطروا عـلى المـكان، في تلـك الدقائـق الحاسـمة والأصابـع لا تـزال عـلى الزنـاد تطلـب المزيـد مـن دم الصهاينـة المحتلـين، تهـاوى النفـق بفعـل الهـدم الـذي أبـاد للمكان بـأسره ولم يتبـق سـوى البـئّر وفتحته والثـلاث أمتار المبنية مـن الباطون الجيـد حتـى تحمـي الشـباب في اللحظـة الحساسـة.

- يهمس حَمُكه في أذن إبراهيم: والآن ماذا سنفعل؟!.

- نتوكل على الله وننتظر، لأننا لن نستطيع مواجهة الجرافة والدبابة بالكلاشنكوف بعد أن فقدنا عبوتي الشظايا وال آر- بي –جي.

- استمر العدو بالعمل وصوت آلياته وجنوده في الأعلى، يشعر بها المقاتلان وكأنها في الأمتار الثلاثة، لحظات صعبة، لم يخططا أن تكون على هذا النحو وبهذه السرعة، فقبل دقائق معدودة، كان خمستهم يتقاسمون الحكاية معاً، يكتبونها بأنفاسهم التي شاركت الهواء الممزوج بالرطوبة، يرسمون على جدران النفق لوحة الوطن الذي عشقوه فأصبح يداعب أحلامهم ويقظتهم، ويدهشهم قلبٌ سكنَ بين ضلوع سمارة يملك عاطفة الكون بأسره، أما الآن فتبكي عينُ إبراهيم التي لم تعتد غياب علاء عنها، وترتجف يد حَمُكة التي أقسمت لعماد أن يدفن بها المارّون قسرًا على أرضه وقد أصبحت بدون سلاح، ما أقبح المحتل، ولكن!!يقول حَمُكة وهو ينتظر الفصل الأخير من حكاية الدم التي يصنعها مع أحبته وهم صيام: لسنا خسارة في سبيل الله ومن أجل فلسطين، مرحباً بالشهادة.

- فيمد إبراهيم يده على كتفه قائلاً: إذا كان العمر قد انتهى فما أجمل أن تختمه بشرف!

- ثم يصمتان على واقع ما يجري فوقهما، بعد أن هدأ الرصاص، وكم تمنيا أن يَكون الاتصالُ ما يزال مستمراً مع غرفة العمليات حتى يزفا إليها حصادَ المعركة وكيف انتصر الصبرُ على القوه الغاشمة، وانكشفت عورة المحتل تحت بساطير رجال النخُبة.

- لا بأس.

- يقول إبراهيم محدثاً نفسه: ستخُبرهم آثارنا عن ذلك.

- ولا يزال المجاهدان يرقبان التطورات والدقائق تسير، حتى سمعا صوت الجنود قرب فتحة البئر، فاستعد إبراهيم لفتح النار، ولكن! حدث أمٌر آخر، عندما رمى أحد الجنود قنبلة يدوية إلى داخل النفق، فسقطت بالقرب منهما ولم تبعد سوى مترين فقط، وقبل أن يفكرا بأي شيء، انفجرت القنبلة، لتتناثر شظاياها في الأمتار الضّيقة تلك. فتصيب الاثنين، ويسأل إبراهيم وهو يتفقد حَمُكة: أرني إصابتك بسرعة؟؟.

- لا تخف، لا أشعر أنها خطيرة.

- كان حَمُكة يرد على إبراهيم وهو يتحسس جسده الذي أُصيب بعدة إصابات سطحية، أهمها، شظيةٌ التصقت في الصدر استطاع أن ينزعها بسرعة وهو ينظر إلى إبراهيم الذي أُصيب بنزيف في يده ورجله: أوقف الدم فوراً، أنت تنزف.

- وبينما إبراهيم يُخرجُ الإسعافات الأولية لتضميد الجراح، سقطت قنبلة يدوية ثانية، وهنا تشاهد الاثنين وهما يضمان بعضهما البعض، حيث لا مجال للاختباء أو أخذ الوضعية الصحيحة لتفادي الضرر الأكبر للقنبلة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

- ولم يكد ينتهيا تَشاهدهما حتى انفجرت الثانية في نفس المكان ونفس القوة، فتضرر سمعهما من شدة الصوت، يسأل إبراهيم همساً: هل تشعر بما أشعر؟!.

- فيرد حَمُكة: أنا لا أشعر بشيء.

- فيتحسسان نفسيهما مجدداً، وكأنهما في حلم، فلم يتلقيا أي شظية أو ضرر جراء الانفجار الثاني، يقول حَمُكة: الحمد لله أن القنبلة ليست مثل قنبلة القسّام، وإلا أصبحنا الآن في خبر كان.

- يبتسم إبراهيم رغم الألم من جراح القنبلة الأولى، وقد سلما أمرهما إلى الله ولم يعد يخيفهما شيء، فالموت لديهما شهادة يفضلانها على ما سواها وقد سبقهم إليها خير الناس، سنرى ما لديهم أيضاً.

- لكنّ الجنود غادروا المكان وبقيت آليات العدو تحرث في المكان جيئة وذهاباً، عندها تفرغ الاثنان لتطبيب نفسيهما بما يتوفر من شاش واسبيرتو، حتى اضطر إبراهيم إلى تمزيق بنطاله لتضميد جرحه العميق، ورغم الجُرح ونزف كمية من الدماء، حافظ الاثنان على يقظتهما الكاملة والاستعداد القتالي المصحوب بالروح التي لم يهزها الذي حدث، وفي غمرة ذلك وصوت الجرافة التي تعمل في الأعلى وضجيج الدبابات، قال إبراهيم: يجب أن نسبقهم بخطوة، وإلا نالوا منا بسهولة؟!.

- هل سيفعلون أكثر مما فعلوا؟!.

- لـن يهـدؤوا حتـى يسـدوا النفـق أو يفجـروه أو ربمـا يلجـؤون للغـاز السام.

- ماذا تقترح أن نفعل؟!.

- علينـا فـك أطـواق الباطون وتشـكيل سـاتر منهـا يقينا كل مـا ذكرت، ويكفينـا مـتر ونصـف نختبـئ فيـه حتـى نتجـاوز هـذه المرحلـة مـن المعركـة، والآن علينـا فتـح منفـذ للتنفـس.

- كان إبراهيـم يمتلـك خنجـراً للأزمـات، بـدأ يسـتخدمه لفتـح ثغـرة صغـيرة جـداً في العـين المغلقـة وهـي الثالثـة في الترتيـب وموضوعـة للطـوارئ، لكنهـا الأخطـر كونهـا تخـرج من تحـت الدبابة التـي تتمركز أمـام غرفـة البـئر، لذلـك يلـزم الحـذر الشـديد أثنـاء عمليـة الحفـر في السـقف وإلا انكشـف أمرهـما وأمـر الثلاثـة أمتـار التـي قاومـت قنابل «الميلـز» اليدويـة، وبالفعـل اسـتطاع إبراهيـم إحـداث مجـرى صغـير جـداً للهـواء وانتقـل إلى المرحلـة الثانيـة: يـا إلهـي، إنهـا لا تتزحـزح؟!.

- كان التصميـم الهنـدسي للمواقـع الحساسـة في النفـق يأخـذ بعـين الاعتبـار ضرورة تحملـه للضربـات الأمـر الـذي يعنـي متانـة المـواد المصنوعـة منهـا هـذه الأقـواس التـي يتـم تركيبهـا بدقـة.

- أخـذ حَمُكـة الخنجـر وحـاول تحريـك الباطون ولكـن دون جدوى: لا أظنها سـتتحرك.

- دعنا نحاول، فالأمر يستحق.

- وهكذا بقي الاثنان ساعات طويلة، يحاولان، يتساعدان في الجهد، يأخذان بالأسباب، ويعذران إلى الله، رغم التعب والإرهاق والعطش والجوع، وعند المغرب، أفطرا وفكا صيامها ولكن!! على الماء فقط، حيث كانا يملكان نصف لتر من الماء، يقول حَمُكة: يجب أن يكفينا أكبر مدة ممكنة.

- انصاع إبراهيم الذي نزفَ دماً كثيراً للواقع، رغم استغاثة جسدِه وطلبه مزيدًا من الماء، أما التمر كان على بعد مترين منهما، في الجهة المقابلة لمكانهما الذي يلزم الوصول إليه تجاوز كومة من التراب التي تجمعت أسفل البئر جراء الهدم، ولم يكن من المضمون والأمان المرور من تحت فتحة البئر التي يمكن كشف أيّ شخص يمر أسفلها، عوضاً عن الصوت الذي ستحدثه الأكياس والأوعية البلاستيكية الموجودة على الأرض، لذلك اكتفيا بالقليل من الماء.

- لم تغب آليات العدو طيلة ساعات الليل، وبقي الاستنفار داخل النفق وخارجه، حيث صلى الاثنان صلواتهم فرادى تيمماً، لعدم وجود الماء، ولم تستطع الجفونُ أخذ سِنة من الراحة سوى لحظات اقتنصها حَمُكة قبيل شروق اليوم الثاني.

«خاتمة المعركة»

اليوم الرابع عشر للكمين، الثلاثاء 22 تموز

- حَمُكة، حَمُكة، استيقظ بسرعة.

- كانت الساعة السابعة صباحاً عندما تجمع الجنود على فتحة البئر، ولم يدر المجاهدان المُصابان ماذا سيحدث حينها، لكنهما بالقطع كانا جاهزيْن لكل الاحتمالات بعد أن قررا البقاء في النفق وعدم الخروج فجراً خشيةً من مجهول مفاجئ، فقد كانت الفكرة أن يتحركا في هذا الوقت الذي تسكن فيه حركة العدو، الأمر الذي تم ملاحظته طيلة الأيام الأربع الماضية، والتوجه إلى البيوت المجاورة، غير أن القناعة الكاملة بالخطوة لم تكن متوفرة في ظل عدم وجود سلاح لحَمُكة والمخاطر الكبيرة دون أدنى معلومات، لذلك بقيا كامنيْن ينتظران تطوراً يعمل لصالحهما، لكن الأمور لم تجر كما أرادا!!.

- يسأل حَمُكة وهو ينظر إلى بندقية إبراهيم مصوبة أسفل البئر: ماذا حدث؟!.

- لا أدري لكنهم يستعدون لأمر.

- لم يكد ينهي كلامه المُقتضب، حتى سقطت قُنبلة كبيرة داخل النفق، لحظتها فقط! أيقن الاثنان أن موعد الشهادة قد حان. فإن أخطأتهما القنبلتان اليدويتان بالأمس، فلن تخطئهما هذه العبوة الناسفة التي لن تبقي شيئاً منهما على حاله، فكانت، لا إله إلا الله محمد رسول الله تخرج من روحهما التي سلّمت أمرها إلى الله، حيث وضعا رأسيهما للأسفل وهما يرددان الشهادتيْن لتكون آخر ما يقولانه في الدنيا، ولكن!! لم تحن ساعتهما بعد!! وقد استغربا أنها لم تنفجر، ولولا ما حدث بعد ثوانٍ معدودة لقالا إنها كرامة من الله.

- ينظر إبراهيم إلى العبوة التي كشفها الضوء القادم من أعلى والتي سرعان ما انطلق الدخان منها بصورة جنونية، محدثة صفيراً قوياً، ليكتشف أن المعركة لم تنته بعد، فلا يزال العدو يبحث عن شيء في النفق، ليس بالضرورة عن مقاتلين، وإلاّ لما ترك الأمر يوماً كاملاً، وهذا ما اتضح عندما بدأ الدخان يملأ المكان ويُقضي على الأكسجين بسرعة فائقة لضيق الحيّز المتبقي من النفق بعد أن أغلقت فتحة البئر ووجهت مضخة هوائية ضخمة لدفع الدخان إلى الداخل، وعلى الرغم من أن بعض الدخان كان يصعد من البئر، إلا أنه أصبح أسوأ الأعداء على وجه الأرض، فقد أُسقِطَ بيد إبراهيم وحَمُكة، اللذين بدءا بمقاومةٍ يائسة للدخان، عندما أخذا يبحثان عن الأكسجين في كل شيء دون أن يتمكنا من رؤية شيء، يقول إبراهيم وهو يصارع الموت: افتح وعاء الماء وضع أنفك فيه.

- حيث كانا يمتلكان وعاءين فارغين للماء، ظناً منهما بإمكانية الاستنجاد ببعض الأكسجين منه، ولكن دون فائدة، فلجئا إلى ما تبقى من اسبيرتو وقطن للتخفيف من تأثير الدخان الذي سيطر على جهاز التنفس والأعصاب وأفقدهما توازنهما، أيضاً ذلك لم يجد نفعاً .

- قاوم إبراهيم وحَمُكة مدة نصف ساعة، استشهدا فيها عدة مرات، ولكنهما لم يفارقا الحياة وقد ظنا للحظة أنهما سيلحقان بعلاء وسمارة وعماد، وكلما تقدمت الدقائق ازداد الأمر صعوبة واستحالة، حتى بكت خاتمةُ المعركة وما تبقى من جسديْهما المنهكيْن وهما يخرجان من النفق تقودهما حرارةُ الروح التي أوشكت أن تصعد لخالقها وقد أعذرا للعزة والكرامة وللبطولة.

تعقيب المؤلف:

- أنا سعيد، بل في أشد السعادة وأنا أُنهي السطر الأخير للرواية، في الوقت الذي يُفترض بي كإنسان يدخل عامه الواحد والعشرين في الأسر، أن يكون وضعه غير ذلك، لكن عندما تنزف حكايات المقاومة وأدبها، تشعر بنشوة النصر على القيد، وخاصة أن هذه الرواية الرائعة أبطالها، تأتي بعد قرابة أربع سنوات من الجدب الأدبي، حاولت خلالها الكتابة فلم أنجح بإنجاز شيء يكتمل، حتى وقع قلمي وعقلي وروحي على هذه الحكاية.

عندما حضر إلى السجن بعضُ الإخوة الجدُد، كان نصيب ثلاثة منهم الانضمام إلى حلقتي التربوية التي أديرها منذ فترة في إطار البرنامج الثقافي العام، ومنذ اللحظة الأولى للتعارف وإلحاح الشباب لسماع قصة زملائهم الجُدد من أبناء «النخُبة» الذين مكثوا أربعة عشر يوماً في النفق وخاضوا معركة بطولية.

قررت أن أنظمَ ذلك في رواية ولكن!! تفاجأت في اليوم التالي بأخٍ

مـن القسـم الـذي أسـكن، يطلـب منـي تقديـم المشـورة الأدبيـة لـلأخ إبراهيـم أبـو شـاويش لأنـه ينـوي كتابـة القصـة التـي حدثـت معهـم، أعـترف بـأن الخيبـة أصابتنـي لكنـي لم أُظهـر ذلـك، وكنـت صادقـاً في تقديـم النُصح عـلى مدار عـدة أيـام، حيث بـدأ في الكتابة وأنـا أصوّب مـا يكتـب عـلى بسـاطته حتـى انتقـل إلى غرفتـي وانتقلـت مـع رغبته بـأن أكتـب قصتهـم، وللدقـة أكـثر، قصة إخوانهم الشـهداء عـلاء وعماد وسـمارة ـ رحمهـم اللـه ـ، فطلبـت عـلى الفـور، شـهادة سـكان الغرفـة الثمانيـة عـلى ذلـك، ومـن تلـك اللحظة بـدأتُ مـشروع الروايـة، أبحث حتـى عـن الأنفاس التـي كانت في النفـق، عن رجال المقاومـة الحقيقية عـلى أرض فلسـطين.

وللحقيقـة أقـول، إن إبراهيـم وحَمُكـة كانـا يتحرجـان الحديـث عـن نفسـيهما، لـولا أن قائـد مجموعتهما في حي الأمل محمـد القدرة، الذي تـم أسره في مهمـة أخـرى أثنـاء الحـرب، وحثهـما للتعـاون معـي، لما تم إنجـاز العمـل، حيـث التزمت الكتابـة اليومية مدة أربع سـاعات ليلية، في سـباق مـع السـجّان وأي طـارئ قـد يعيق المشروع كالنقل إلى سـجن آخـر، وأعـترف أن الكتابـة عـن هـذا الجيـل الجديـد الـذي يحقـق مـا حلمنـا بـه في بدايـة المقاومـة، لهـو مُتعـة وشرف ومـن حـق المخلصين مـن أبنـاء شـعبنا وأمتنـا العربيـة والإسـلامية وأحـرار العـالم، أن يعرفـوا مَـن يصنـع المسـتحيل ويـدوس ببسـطاره عـلى رأس المحتل الفاشـل.

- كانت أشهر جميلة، أخفيتُ فيها أمر الرواية عن الأهل الذين كانوا يستعدون لإطلاق روايتي الثانية «خلف الخطوط»، حتى تكون مفاجأة، لكني لم أستطع إخفاء الأمر عن إخواني في السجن وتحديدًا جمهور المشجعين والمتابعين الدائمين لما أكتب وأولهم أخي وصديقي بلال البرغوتي الذي كان يقرأ كل حرف أكتبه، وعبد الرحمن بُشكار، رائد عاشور، أمجد السائح، أحمد الصيفي، طارق أبو شلوف، ومنذر صنوبر، ثم الإخوة الذين ساعدوني في النسخ، والنسخ في الأسر مشكلة كبيرة، محمد عارف، جاسر ردّاد، محمد القيق، أما في خارج الأسر فالأخت الفاضلة خديجة البرغوتي والتي ما دأبت تساعد في إبصار أعمالنا النور.

- وأحب عبر كلماتي السريعة هذه، أن أطمئن القارئ الذي ستقع يده على هذه الملحمة البطولية بصورتها الكُليّة، ولم يسعفه العمر أو المكان لمعاينة ما حدث في معركة العصف المأكول، أنَّ رجالَ النخُبة وأبطال المقاومة في غزة، سحقوا كبرياء العدو وانتصروا عليه خلال (51) يوماً من القتال، ولا يزال قادة العدو وسياسيوه، يؤكدون خسارتهم وفشلهم في المواجهة مع الرجالَ الأشداء الذين كانوا يخرجون من تحت الأرض وخلف خطوطه الحصينة، ومن الجميل ذكره، أن رجالَ النخُبة تمكنوا من أسر الضابط هدار جولدن_ ابن خال وزير حرب العدو موشي يعلون_، ولا يزال الحديث يدور عن عمليات سرية في الحرب لم تعلن عنها المقاومة وقد تفضح هذا الجيش الخائب.

- أما عن إبراهيم وحَمُكة، فقد تفاجأ العدو بخروجهما من «النفق» ولم يكن يدري بوجودهما، حيث كان يهدف من وراء الدخان لمعرفة منافذ النفق، وقد خضع الاثنان إلى تحقيق ميداني عنيف لمعرفة خطوط المقاومة وكمائنها، واستمر التحقيق في سجن عسقلان لمدة شهر ونصف، لم يكن يعرف أحد أنهما على قيد الحياة، حيث تعاملت قيادة القسَّام أنهما في عداد الشهداء، أما علاء وعماد وسمارة، فقد تمكن المجاهدون من العثور على أجسادهم الطاهرة فور انتهاء المعركة، ولدى إزالة التراب عن عماد، تم العثور على بندقية جندي صهيوني بالقرب منه!!!.

- إن هذا التعقيب يذكرني بمثيله قبل أربع سنوات في سجن شطة، عندما انتهيت من كتابة رواية «خلف الخطوط» التي تحكي قصة أسر الجندي نحشون فاكسمان، وقد رأت النور قبل أشهر معدودة من هذا اليوم حينها كانت مفاوضات تبادل الأسرى على أشدها، لتتم بعدها صفقة وفاء الأحرار ويتحرر كثير من إخواننا، في الوقت الذي رفض فيه العدو إطلاق سراحنا، واليوم يدور الحديث عن مفاوضات بين العدو ورجالنا في غزة على جنوده الأسرى هناك، ولست أدري من يرى النور أولاً، أنا أم روايتي هذه؟!!.

عمار الزبن

سجن رامون الصهيوني – صحراء النقب

فلسطين المحتلة- 2015/6/10.